رواية

جومانا

ذات العيون البُندقية

أحمد آل حمدان



جومانا

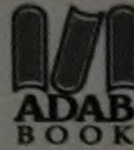
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

آل حمدان ، أحمد
جومانا. / أحمد آل حمدان - ط١. - الدمام ، ١٤٤٤هـ
٢٣٠ ص ؛ ..سم

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨٣٧٢-٩٣-٧

١- القصص العربية - السعودية أ.العنوان
ديوي ٨١٣,٠٣٩٥٣١ ١٤٤٤/١٣٤٢

رقم الإيداع: ١٤٤٤/١٣٤٢
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨٣٧٢-٩٣-٧



مركز الأدب العربي للنشر و التوزيع

مسؤول النشر :
للتواصل
0597777444

الموقع الإلكتروني :
www.daapd.com
مركز الأدب العربي
@Services_Book
@Services_Book
مركز الأدب العربي
adabarabic7
services_book@outlook.sa

المملكة العربية السعودية- الدمام

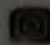
لطلب إصدارات مركز الأدب العربي
@Adab_Book
00966594447441

دولة الإمارات العربية المتحدة دار الأدب العربي للنشر والتوزيع 00971569767989

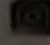
مملكة البحرين مكتبة قصر فخر الدين 0097366753587

جمهورية مصر العربية مركز الأدب العربي 00201120102172

شكر خاص لفريق العمل:

المحرر الأدبي أ. عبيد العايد  (obaidalayed)

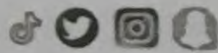
الرسامة المبدعة سامية تركي  (s__ot)

المصمم: صهيب العلي  (sodesgin)

ملحمة الطين والنار:
أحداث ما قبل أبابيل

جومانا

أحمد ال حمدان



I_ahmedalhmdan

الطبعة الأولى
١٤٤٤ - ٢٠٢٣

داخل عينيها البُندقيَّتين: حياة وأقدار،

وبحر عاصف وأسرار، وملحمة اسمها الطين والنار.

إن الحياة يا صديقتي قصة كبيرة كتبها الرب بقلمه .. كل واحد فينا
لديه دوره الذي يؤديه .. وما أن تنتهي مهمة الواحد منّا
حتى يغادر القصة ويرحل ..

الباب الأول

١

ليلًا..

وداخل أحد الكهوف القريبة من قرية الجسّاسة يجتمع أربعة من اللصوص الشركاء وكل واحد منهم قد جاء بغنيمته " **مال.. وطعام.. وأقمشة.. وبعض المجوهرات الثمينة** " .. ولكنهم قرروا عدم اقتسامها حتى يصل شريكهم: اللص الخامس.

بعد قليل يأتي اللص الخامس حاملًا غنيمته فوق كتفه: فتاة حسناء جميلة يُميزها شامة وردية على خدها الأيمن تُشبه ثمرة الخوخ.. يقول وهو يطرحها أرضًا:

- لا شيء يسر الفؤاد غير فتاة يقتسمها الأصحاب فيما بينهم.

يضحك اللصوص مما سمعوه إلا واحدًا منهم وقد كان رجلًا في بداية الخمسين من عمره، حاد الملامح ذا بشرة سوداء مَهيب الطلّة إذ يقول معترضًا:

- نحن لصوص لكننا رجال، والرجال لا يعتدون على الأعراض.

ثم وهو يتوكأ على عكازته الخشبية راح ذلك الرجل يقترب منها بخطواته العرجاء حتى إذا وصل إليها قام بنزع قطعة القماش التي تُكمم فمها وقال بلطف كي يُطمئنها:

- أنا اسمي **مَيثم**، ما اسمكِ أيتها الجميلة؟!

- أأ.. أرجوكم لا تؤذوني.

- لن يؤذيكِ أحد وستعودين لمنزلك آمنة.

ثم يبتسم لها فتظهر غمازة رقيقة على صفحة خده الأيسر ويسألها بلطف:

- لم تخبريني عن اسمك؟

تقول مبتسمة وقد اطمأنَّت له: **ماريا**

همَّ بتحرير يديها المربوطتين خلف ظهرها..

لكن اللص - اللص الخامس - الذي جاء بها اعترض طريق مَيثم وقال:

- إذا كنت غير راضٍ عن هذه الغنيمة فتنازل عن حقك فيها.

- هذه ليست غنيمة **يا قيثار**، إنها فتاة.

- ولماذا خُلقت النساء؟!.. أليس لإمتاع الرجال؟!

ضحك بقية اللصوص من كلامه؛ فقال مَيثم يُجادلهم بذات المنطق:

- إذا كان هذا منطقكم فاجلبوا لبعضكم أمهاتكم وأخواتكم إذًا.

انقطع الضحك.

قال أحدهم:

- اعتذر أيها الأسود الحقير - وأردف مهدئًا:

- اعتذر كي لا أبتر لك قدمك الثانية وأركلك بها.

- إذا كان هناك من يجب عليه أن يعتذر فهو الشخص الذي أخاف هذه الفتاة المسكينة.

وقال يدعوهم بالتي هي أحسن:

- دعوها تذهب؛ إن الرب يرحم الذي يُحسن إلى النساء.

لم يصغوا إليه؛ فقد طمست الشهوة قلوبهم وما كانوا مستعدين للتفريط بتلك الفتاة بأي ثمن، فقام أحدهم بتجريد سيفه نحو مَيثم وقال له:

- غادر الكهف إن كنت تريد البقاء حيًّا ليوم آخر.

هو يُدرك أنهم لا يهددون عبثًا ويُدرك أيضًا أن قدمه الوحيدة لن تُعطيه المرونة الكافية للمقاومة، ورغم ذلك قرر عدم التخلي عن الفتاة فخبأها وراء ظهره وجرّد عليهم سيفه:

- إذا كنتم تريدون الوصول إليها فعليكم العبور من فوق جثتي أولًا.

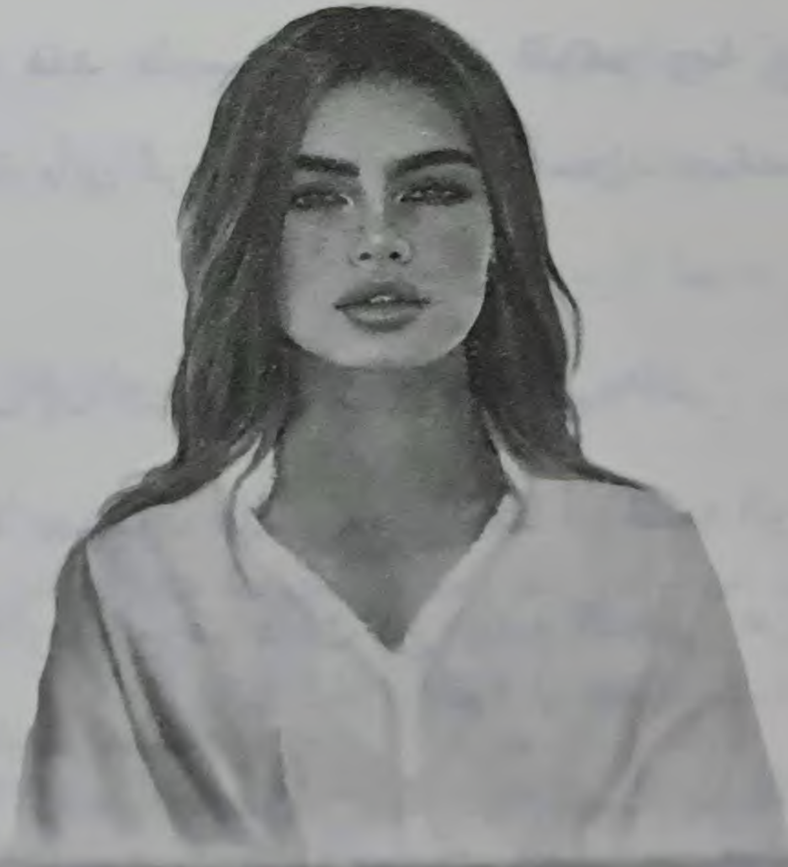
جرّد بقية اللصوص سيوفهم ضده ثم هاجموه..

ولكن قبل أن تصل سيوفهم إليه حدث شيء غير متوقع..

لقد سقطوا جميعًا - سقطوا جثثًا هامدة - بعد قيام شخص ما بمهاجمتهم من الخلف في وقت واحد.

**

وعلى أضواء الفوانيس التي كانت تُنير الكهف من الداخل استطاع مَيثم وماريا رؤية ذلك الشخص الذي أنقذهما: لقد كانت فتاة لها عينان بُندقيتان ووجه أبيض مُرقط بحبات نمش خفيفة وكانت تفوح منها رائحة الياسمين..



أراد مَيثم أن يشكرها لكنه ما كاد أن يرمش بعينيه حتى اختفت من أمامه..

٢

عادت جومانا **للغابة المظلمة**..

ورغم أن الغابة كانت تضج بحراس العائلة إلا أنها استطاعت التسلل من بينهم دون أن تَلفت إليها الأنظار ثم أكملت طريقها حتى وصلت إلى القلعة حيث تسكن مع عائلتها.

في البداية شعرت بلذة الانتصار لأن أحدًا لم يكتشف غيابها وسارعت بالصعود للطابق الثاني حيث حُجرتها ولكنها ما أن فتحت الباب حتى صُدمت برؤية شخص ما كان ينتظرها داخل الحُجرة.

إنها " **تاج** " وكانت تجلس فوق الأريكة واضعة قدمًا فوق قدم وقد بدت عليها أمائر عدم الرضى والغضب، قالت متسائلة بنبرة فيها الكثير من التهديد والوعيد:

- لقد عصيتِ أمري وذهبتِ مرة أخرى لمساكن البشر!!!

أغلقت جومانا الباب خلفها وهمست متوسلة:

- اخفضي صوتك، سوف يسمعك أبي..

- ليسمع؛ فما حدث اليوم لا يُمكن السكوت عنه..

قالت في محاولة لامتصاص غضبها:

- اهدئي؛ فالأمر لا يستحق كل هذا الغضب.

- لقد أظهرتِ نفسكِ للبشر أيتها المتهورة، وقتلتِ منهم أربعة!!

- كانوا سيؤذون الفتاة لو لم أتدخل.

- أنتِ لستِ ملاكًا خُلق من نور، أنتِ جنية أصلكِ النار والأباطرة نسلك.. ولستِ مكلفة بحماية أحد خارج هذه العائلة.

- الحياة دوّارة يا أمي وكل ما نفعله اليوم مع الآخرين سيعود إلينا غدًا..

كان كلامًا غريبًا بالنسبة لـ **تاج** ولم يُعجبها سماعه، فقالت:

- هذا الكلام لا يُشبهنا

وأضافت وهي تنهض من فوق الأريكة وتتجه نحو الباب:

- لقد أصبحتِ تتحدثين بتفاهات البشر.. ويجب أن يضع والدكِ حدًّا لك قبل فوات الأوان.

- أرجوكِ لا .. لا أريده أن يغضب مني.

توقفت تاج تلبية لرجاء ابنتها وقالت تفاوضها:

- لن أخبره إذا وعدتِني بأنكِ لن تزوري مساكنهم أبدًا.

- أستطيع أن أعدكِ بألّا أتدخل بشؤونهم مرة أخرى.

قالت تحادثها بلطف ولين علّها ترضى وتقتنع:

- البشر خطيرون يا ابنتي ولن يطالكِ منهم غير المصائب - ثم أردفت بحنان أم تخاف على ابنتها:

- أنا أُحبك ولا أريد أن أخسرك يومًا؛ لهذا أريد منكِ وعدًا بعدم الذهاب إليهم.. اقطعي لي هذا الوعد وأنا أعدكِ أن والدكِ لن يسمع بما حدث اليوم.

- لا أستطيع أن أقطع لك وعدًا لستُ متأكدة من الالتزام به.

كادت تاج أن تفقد أعصابها لكنها تداركت نفسها في اللحظة الأخيرة، وأكملت الحديث معها بذات اللطف واللين:

- أنتِ جميلة يا جومانا وكل شيوخ الجن وفرسانهم يتمنونكِ، ولكن لن يرغب أحد منهم بالزواج منكِ لو عرف أنكِ تُخالطين البشر كل يوم.

- من هذه الناحية اطمئني؛ لا أريد أن أتزوج فيحدث معي كالذي بينك وبين والدي.

لم تتوقع تاج ذلك الرد القاسي، فقالت وقد فقدت أعصابها:

- عنيدة ورأسكِ يابس؛ يبدو أنني كنتُ أتوحم على حمارة عندما كنتُ حاملًا بك.

كتمت جومانا ضحكتها كي لا تزيد بها غضب والدتها.

قالت تاج وهي تغادر:

- منذ الآن وصاعدًا والدكِ هو من سيتصرف معك.

**

في الحقيقة كانت العلاقة بين تاج وزوجها " **جبّار** " متوترة لأقصى حد وقد سبق له في الماضي أن قام بطردها من العائلة ورغم ذلك إلا أنه لم يحرمها رؤية ابنتها..

**

بقيت جومانا في حُجرتها متحصنة بالأماني..

لقد كانت تتمنى لو أن كلام والدتها قبل قليل لا يعدو كونه مجرد تهديد عابر.. ولكن أمانيها سُرعان ما تبخرت في الهواء وذلك عندما سمعت بعد قليل الصيحة - صيحة والدها - وهو يناديها:

- جوماناااا

٣

وسط ضباب الغابة المظلمة سارت جومانا خلف والدها خافضة رأسها..

لم يتحدث معها طوال الطريق وبقي يسير صامتًا وهي تسير وراءه حتى وصلا لبُحيرة ذات شكل دائري كانت تقع ضمن نطاق الغابة المظلمة.

كان المكان غارقًا في ظلام دامس ولكن ما أن لمس جبّار الماء بطرف اصبعه حتى انبعث من عمق البحيرة ضوء ساحر أصفر أنار المكان:

- أتذكرين هذه البحيرة؟

- نعم؛ إنها البحيرة التي كنتَ تصطحبنا إليها - ثم استطردت بصوت حزين وكأن الذكرى آلمتها:

- أنا وأخي " **أساطير** " عندما كنا صغارًا.

- وأين هو الآن؟!

لم تكن جومانا تعلم السبب الحقيقي وراء اختفاء أخيها، كانوا دائمًا يقولون لها إنه رحل دون أن يخبروها لماذا أو إلى أين، وكانوا دومًا يحثونها على نسيانه..

في البداية واجهت صعوبة بالغة في التأقلم مع اختفائه حتى استطاعت لاحقًا التعايش مع الأمر، ولكنها لم تنسه لحظة واحدة وأبقته في قلبها محرمًا على النسيان؛ فالأخت لا يمكنها أن تتوقف عن حُب أخيها.

قال جبّار:

- لقد كبرتِ الآن يا ابنتي وقد حان الوقت لتعرفي الحقيقة.

تظل الذكريات مدفونة في قبورها حتى نبدأ بالحديث عنها فتنهض لتهاجم مكامن الضعف فينا.

كان جبّار يعلم ذلك جيدًّا؛ ولهذا فإنه قرر أن يخبرها بالحقيقة مختصرة دون التطرق لذكر التفاصيل..

٤

- لقد كان أخوكِ يحب زيارة مساكن البشر مثلكِ، ولكنه انجرف وراء إحدى ساحرات الإنس ونذر نفسه لخدمتها.

فهمت جومانا في تلك اللحظة السبب الذي لأجله تحاول والدتها دومًا منعها من الذهاب لمساكن البشر، إلا أن هناك أمرًا لم تفهمه بعد:

- ولكن ما أعرفه هو أن السحر ليس محظورًا علينا

- صحيح، ولكن تلك الساحرة كانت تتعامل بالسحر الأسود

- السحر الأسود؟

- أنه أحد أنواع السحر المحرَّمة علينا؛ لذلك قرر كُبراء العائلة نفيه.

جلس جبّار أرضًا وكأن تلك الذكرى هدّت بنيانه، لقد كانت الحرائق تشتعل في قلبه ورغم ذلك إلا أنه كان يُحسن إدارة مشاعره جيدًا فيبدو وكأنه لا يكترث لشيء.

في الحقيقة لم يكن لشخص - أي شخص - أن يستوعب أن الحزن قد يزور يومًا قلب شخص مثل جبّار؛ إنه كبير الأباطرة وأحد أقوى جن الأرض وله سمعة ذائعة الصيت تجعل حتى الجبال الرواسي تهتز خوفًا لسماع اسمه.

ولكن لأن الفتاة سر أبيها فقد أحسّت جومانا بما يعتمل في قلب والدها فألقت بنفسها إلى حضنه وكأنها بتلك الطريقة كانت تصد عنه بجسدها سِهام الحزن.

فلم يلبث جبّار كثيرًا حتى أشرقت ابتسامته من خلف شاربه وذقنه الكثيفين؛ لقد كانت ابنته سنده ومتكأه وعصاته التي يهشُّ بها على وجعه.

- لماذا تصرين على ذهابك لمساكن البشر يا بُنيتي؟!

- لديَّ صديقات هناك أزورهن.

اتسعت عيناه لفرط الدهشة؛ فقد كان يظنّ أن ابنته كبقية الجنيات اللائي في مثل عمرها.. واللائي يدفعهن الفضول للتجسس على بني البشر، ولم يكن يعلم أن الأمر قد تطور إلى أكثر من ذلك.

غير أن ابنته قالت تُطمئنه:

- ولكني لا أكشف لهن نفسي، فأكون معهن ولا أحد يعلم بوجودي.

كانت بطبيعتها متمردة ولا تعترف بقوانين أحد، تتصرف وفق ما تقتنع به هي وليس وفق ما يراه الآخرون مناسبًا، غير أنها في الوقت ذاته كانت تُحب والدها كثيرًا وكانت مستعدة لأجل ذلك الحب أن تفعل كل ما يتطلبه الأمر لتبقى كبيرة في عينيه.

ولذلك قالت:

- ولكن إذا أمرتني بعدم الذهاب فإنني سألتزم بأمرك.

وكان جبّار يستطيع - ليس بصفته والدها فقط - بل بصفته أيضًا كبير العائلة.. كان يستطيع منعها من الذهاب، ولكنه يُدرك أن القاعدة الأولى لاحترام الآخرين له هي احترامه هو لرغباتهم ومنحه إياهم الحُرية الكاملة - طالما - أن تلك الحرية لن تتسبب بأذية الآخرين من أفراد العائلة:

- سأسمح لكِ بالذهاب.

ما أن سمعته يقول ذلك حتى طوّقته بذراعيها ودفنت وجهها في لحيته الكثيفة البيضاء وصرخت وهي تدفع بجسده الضخم للخلف، فتُسقطه على ظهره وتسقط معه:

- أُحبك يا أبي !!!!

ضحك جبّار بصوت مرتفع.. لقد كانت ابنته تستطيع بحركاتها المجنونة تلك أن تنفض عنه غبار الشيخوخة وتُعيد إليه بريق الشباب الآفل:

- ولكن هُناك شرط.

نهضت جومانا واقفة أمامه.. أحنت ظهرها للأمام تُقلد قادة الجن عندما يقفون أمام والدها ليقدموا له فرائض الاحترام والطاعة، ثم قالت بصوت خشن تُحاكي فيه طبقات أصواتهم الغليظة:

- أمرك سيدي جبّار.

كان شكلها مُضحكًا ولكنه كبح ضحكته؛ لكي يجعل كلامه يبدو أكثر جدية:

- **أن تلتزمي بقانون العائلة.**

- حاضر، لن أستخدم قوة النار أمام البشر مرة أخرى كي لا ألفت انتباههم إلى أنني جنية.

ثم أردفت تقول: أأنت راضٍ عني الآن؟!

- هناك أمر آخر.

- ما هو؟!

ربّت بيده الكبيرة على الأرض وقال: اجلسي أولًا.

جلست كما طلب منها وأصغت إليه.

- والدتك تقول إنك لا تريدين الزواج.

- أرجوك يا أبي، لقد تحدثت معك في هذا الأمر أكثر من مرة.

- وتظلين عزباء طوال عمرك؟!

- حتى أُصادف أحدًا يُشبهك يا قمر الأقمار أنت، فأرمي بنفسي إلى قدميه وأتوسله أن يتزوجني..

حاول والدها ألّا يضحك كي لا يُفسد جدية الموضوع، لكنه لم يستطع فضحك حتى ابتلَّت عيناه بالدموع..

**

قالت بعد قليل مُنتهزة مزاج والدها الطيب:

- ذلك البشري الذي اسمه مَيثم.

- ما به؟!

- ماذا سيحدث له؟!

- لقد رآك ويجب أن يُقتل؛ هذا مهم لسلامة العائلة.

- أرجوك لا تجعل أحدًا يمسّه بالأذى، أرجوك.. أرجوك!!

كاد جبّار أن يذكرها بحساسية الموقف، لكنها سبقته بالقول:

- أعلم أن " **ناب الفيل** " يطاردنا ولأجل هذا فإننا نختبئ داخل الغابة المظلمة منذ سنين طويلة.

- جيد أنكِ لم تنسي، لقد اختصرتِ عليَّ كلامًا طويلًا.

- ولكن مَيثم ليس أحد أعدائنا يا أبي.

- أعلم، ولكن البشر يثرثرون.

وأردف يُقنعها كي لا تحزن عندما يصلها خبر إعدامه:

- ماذا لو ثرثر ذلك البشري عنكِ وبدأ الجميع بتداول أخبار تفيد بظهور جنية في قُرى الإنس؟! .. ماذا لو وصلت تلك الأخبار للأذن الخاطئة وقادت عدونا الحقيقي إلينا؟

- لماذا لا نُسقيه من سائل النسيان، فينسى ما حدث؟

- لا نستطيع تقديم سائل النسيان قبل الحصول على موافقة مجلس الكُبراء، وأنا لا أريدهم أن يعرفوا بشأن ما فعلتِه اليوم يا جومانا.

- سأطلب منه أن يقطع لي وعدًا بنسيان ما حدث.

كان جبّار صارمًا مع الجميع لكنه يصبح أكثر تساهلًا عندما يتعلق الأمر بشأن ابنته:

- وما الذي يجعلك واثقة أنه سيلتزم بوعده؟!

- لقد كاد اليوم أن يموت دفاعًا عن فتاة لا يعرفها، رجل مثل هذا أستطيع أن أثق به.

- وماذا بشأن تلك الفتاة؟

- لا أعتقد أنها رأتني؛ لقد كانت مختبئة خلفه طوال الوقت.

- يبدو أنكِ لم تعودي تتحدثين كالبشر فقط، بل أصبح قلبكِ ضعيفًا مثلهم أيضًا.

- أنت من علمني أن القوة لا تُقاس بأذية الآخرين، بل بمدى قدرتنا على حمايتهم من الأذى.

- صحيح، ولكن علمتكِ أيضًا أن سلامة العائلة فوق كُل شيء.

صاحت:

- قلتُ لك إنني أثق به !!!

وانتبهت لسوء فعلها؛ فوضعت يدها على فمها كتعبير عن الندم وخفضت رأسها وهمست:

- أنا آسفة يا أبي لم أقصد.

رفع جبّار وجهها بيده وأطال النظر إلى عينيها البُندقيّتين اللون، فنالت بجمال عينيها شفاعته.. ابتسم لها وقال ملبيًا طلبها:

- ذلك البشري لن يُمس بأذى.

رمت بنفسها إلى حضنه وهمست: لهذا السبب لن أتزوج حتى أجد من يُشبهك..

كانت متأكدة أنها لو تطلبه القمر لأجلها يقطفه ويُلقيه بين يديها، أو تطلبه النجوم يصنع منها عقدًا يلفه حول جيدها، أو تطلبه الليل يُطرزه شالًا يُلقيه كالحرير فوق كتفيها.

لذلك لم تكن تشعر بأنها أميرة إلا في حُضن والدها.

لقد كانت وهي في حُضن والدها تشعر بألّا شيء يستحيل عليها.

في تلك الليلة:

امتد حديثهما طويلًا وحين دهمها النعاس غفت.

ظلَّ جبار يمسد شعرها وهي غافية، وبينما كان يفعل ذلك إذ سمع حفيف صوت مخلوق زاحف ضخم يقترب منه، ثم جاءه الصوت الأنثوي المهيب:

- أما زلت تفكر بذلك الأمر يا سيدي؟

- نعم، ولكنني لم أتخذ فيه قرارًا بعد.

صمتت صاحبة ذلك الصوت.. ولكن أنفاسها ظلّت تتردد في المكان معكرة صفو مياه البحيرة..

قالت بعد لحظات وكأنها تذكره:

- ولكنك تعلم أنه محرّم في كل قوانين الأرض وشرائع السماء.

نهض من هُناك حاملًا ابنته بين يديه، قال وهو يبتعد بها:

- نعم، أعلم.

٥

عندما أفاقت جومانا في صباح اليوم التالي غسلت وجهها بالماء، وتناولت بعض الفواكه الخاصة والتي كانت عائلة الأباطرة تقوم بزراعتها في الغابة..

ثم غادرت القلعة متجهة نحو قرية الجسَّاسة.

**

كانت عادة حين تصل القرية تذهب لصديقاتها من بني الإنس فتُنصت لقصصهن وتضحك لنكاتهن وتُشاركهن الغناء والرقص.. تفعل كل ذلك دون أن يعلم أحد منهن بأن جنية ما تجلس وسطهن.

ولكنها هذه المرة لم تذهب إليهن كعادتها، بل انحرفت في طريقها وذهبت لمكان آخر..

**

كان مَيثم حينها قد انتهى من دفن بعض المسروقات في أرض منزله، عندما سمع أحدهم يطرق عليه الباب..

لم يكن معتادًا على أن يزوره أحد لا سيمّا في مثل ذلك الوقت الباكر فقام بتحسس السكين التي يُخبئها دائمًا تحت ثيابه، ثم متوكئًا على عكازه ذهب ليرى من الطارق..

حين فتح الباب شاهد أمامه فتاة تُغطي وجهها بلثمة بيضاء..



لم يكن بحاجة ليرى بقية ملامح وجهها كي يتعرّف عليها، كان يكفيه فقط أن ينظر لعينيها البُندقيَّتي اللون فيتذكرها..

قال بدهشة:

- أنتِ؟!!

لقد كان متفاجئًا بزيارتها ولكن جومانا - لفرط حساسيتها - ارتبكت وأساءت تفسير ردة فعله تلك واعتقدت أنه خائف منها، فاختفت من أمامه.

- أرجوك لا تخف لن أقوم بأذيتك، لقد جئتُ أطلب منك معروفًا وسأنصرف.

صمت ولم يقل شيئًا فقد كان لا يزال تحت تأثير الدهشة، أما هي فقد تأكدت أكثر - من خلال صمته المستمر - أنه خائف منها فقالت لتُنهي ما جاءت لأجله وتنصرف:

- أريد وعدًا بألّا تخبر أحدًا عما حدث داخل الكهف.

أما مَيثم فإن الدهشة لم تلبث طويلًا حتى زالت عنه وابتسم لها فظهرت غمازته اللطيفة:

- أنا لستُ خائفًا منكِ، أرجوكِ أظهري نفسكِ.

لم تُظهر جومانا نفسها وظلّت مختبئة فقال مازحًا:

- بهذه الطريقة سوف أُضطر لأخبر الناس عنكِ، وإلا فسوف يعتقدون أنني قد أُصبت بالجنون عندما يشاهدونني وأنا أحادث نفسي بهذه الطريقة.

ظهرت له جومانا.. وبالرغم من أنها كانت لا تزال تضع اللثمة على وجهها إلا أن عينيها فضحتا ابتسامتها.

قال:

- أعدكِ بألّا أخبر أحدًا.

ثم مدَّ إليها يده الكبيرة وعرّف عن نفسه:

- اسمي مَيثم، صحيح أنني لص، ولكن يُمكنكِ الوثوق بي.

ترددت قليلًا - ليس بشأن الوثوق به - بل بشأن مصافحته، كانت تعلم أن ذلك الأمر يعد مخالفًا لقوانين العائلة ولكن الجنية مدت إليه يدها وقالت:

- اسمي جومانا، صحيح أنني جنية ولكني أحب رِفقة البشر أكثر.



كانت تلك هي المرة الأولى التي تصافح فيها جومانا يد مخلوق من بني الإنس.. وفي الحقيقة لقد استلطفت ذلك الإنسي كثيرًا وتمنّت لو أنه يصبح صديقًا لها..

لم تكن تلك الأمنية نابعة من إعجابها به - فهي لا تعرفه بعد - ولكنها نابعة من رغبتها في أن تملك صديقًا.. صديقًا حقيقيًّا تستطيع الظهور له والتحدث معه والإنصات إليه..

قالت تخلق معه حديثًا:

- تلك الفتاة التي أنقذتها في الكهف.

- ما بها؟!

- إنها غريبة عنك، ورغم ذلك كنت مستعدًّا للموت لأجلها.

الجن بطبيعتهم لا يفهمون ذلك النوع من السلوك، هم لا يفهمون أن يقوم شخص ما بالتضحية بحياته لأجل شخص آخر غريب وهذا ما دفعها لطرح هذا السؤال تحديدًا

أجابها:

- إننا غُرباء عنكِ أيضًا ورغم ذلك قمتِ بمساعدتنا.

قالت توضح الفرق بين الحالتين:

- ثمة فارق كبير بيننا، فأنا كنت أملك القوة التي أضمن بها القضاء عليهم، بينما أنت لا.. لقد كنت تعلم منذ البداية أنك مهزوم وكان طريق الانسحاب أمامك متاحًا ورغم ذلك اخترت ألّا تمشي فيه..

استدار، ثم قال وهو يعرج لداخل المنزل:

- اتبعيني، سأُريكِ شيئًا.

صحيح أنها كانت تريد التقرّب منه.. ولكن ليس إلى درجة أن تدخل معه المنزل.

لذلك بقيت مكانها ولم تتبعه فتوقف مَيثم، نظر إليها من فوق كتفه وقال:

- ما بكِ يا ابنة النار؟!.. لا تقولي إنكِ خائفة مني؟!

- لا شيء يا ابن الطين، لستُ خائفة منك.

- اتبعيني إذًا؛ لتعرفي جواب سؤالك.

٦

كان المنزل صغيرًا من الداخل ويشي بحالة فقر سكانه..

سار مَيثم بخطواته العرجاء مستندًا على عكازه الخشبي حتى وصل إلى غرفة ما وفتح بهدوء بابها، ثم همس قائلًا وهو يشير بأصبعه الضخم كما حبة الكوسا لداخل الغرفة:

- انظري هناك.

ألقت جومانا نظرة للداخل فشاهدت صبية صغيرة نائمة فوق فرشة أرضية

- هذه ابنتي، اسمها **ريحانة**.

ثم أردف شارحًا:

- فتاة الكهف تلك ذكرتني بها، وقد تخيلت الحُزن الذي سوف يصيب والدها عندما يكتشف أن هناك من خطف ابنته وعبث بها؛ فقررت الدفاع عنها..

- كنت أعتقد أن..

كانت ستقول شيئًا ولكنها صمتت؛ كي لا تكسر خاطره

- كنتِ تعتقدين أن اللصوص لا يملكون مثل هذه المشاعر؟

هزّت رأسها، فقال:

- أنا لصٌّ لطيف.

ابتسمت جومانا من خلف اللَّثمة.

قال مَيثم:

- أحيانًا تُرغمنا الحياة على أن نكون الشخص الذي لم نحلم به يومًا، وهذا ما حدث لي.. لقد أجبرتني الحياة على أن أكون لصًّا ولكنني حين بدأتُ هذا العمل عاهدتُ نفسي على ثلاثة أشياء.



وقال يعددها على أصابع يده:

- ألّا أسرق من الفقراء، وأن أعطي المحتاجين مما أغنمه، وألّا أعتدي على أعراض الآخرين.

- أنت لصٌّ محترم.

- شكرًا، لقد أخجلتِني.

مكث الاثنان صامتين لبعض الوقت ثم انفجرا ضحكًا..

تسببت تلك الأصوات بإيقاظ الصبية - ريحانة - والتي دفعها الفضول لتنهض من فراشها وترى الشخص الذي كان والدها يضحك معه..

كانت ريحانة ذات الثلاثة عشر عامًا تملك ملامحَ متناسقة تُبشر بجمال قادم، بشرتها سوداء داكنة كالليل وتملك شعرًا غجريًّا كثيفًا تُبقيه على هيئة ضفائر وتشده للخلف.

احتواها مَيثم في حضنه لما رآها وقال لها الجملة التي يقولها لها كُل صباح:

- صباح الخير، أيتها القملة الصغيرة المزعجة.

لم تبتسم ريحانة كعادتها، وهمست في أُذن والدها قائلة:

- من هذه يا أبي؟!

- إنها صديقتنا الجديدة، اذهبي وسلمي عليها.

اتسعت عينا ريحانة لفرط الفرحة؛ لقد كان جميع من في القرية يرفضون مصادقتهم بسبب سمعة والدها السيئة، فذهبت تركض نحو الصديقة الجديدة وتعانقها.

بدت الجنية متوترة من ذلك العناق؛ فقد فعلت اليوم الكثير من الأشياء التي لم يسبق لها أن فعلتها من قبل: " مصافحة يد رجل من الإنس، والتحدث معه بشكل مباشر، والآن هذا العناق " أحسَّ مَيثم بتوترها فقال يخاطب ابنته:

- ريحانة، اتركي ضيفتنا واذهبي لإحضار الماء من البئر.

رفعت ريحانة رأسها ونظرت إليها: هل ستكونين هنا حين أعود؟!

- آآ، في الحقيقة أنا كنت

قاطعتها ريحانة بنبرة صوت طفولية متوسلة:

- أرجوكِ، أرجوكِ، أرجوكِ - وأكملت تقول:

- سيكون كل من سامري وقُمرية سعيدين بالتعرف عليكِ..

تدخل مَيثم:

- لا تزعجي صديقتنا، فتقرر أن تغادر ولا تعود..

فاضت عيناها بدموع حزينة؛ وذلك عندما أحسّت أنها قد تخسر الصديق الجديد الذي حصلوا عليه بعد كل هذه السنوات، نزلت جومانا على ركبتيها أرضًا لكي تُصبح في مستوى طولها.. مسحت عن عينيها الدموع وقالت:

- حسنًا سأنتظركِ هنا - وأضافت على سبيل المرح: وعندما تعودين أريدكِ أن تعرفيني على آآآ .. ماذا قلتِ كان اسمهما؟!

- سامري، وقُمرية..

- نعم صحيح، سامري وقُمرية، لا بد أنهما جميلان مثلكِ.

التفتت الصبية نحو والدها، تبادلا النظرات قليلًا ثم ضحكا..

- هل قلت ما يدعو للضحك؟!

رد مَيثم موضحًا:

- سامري وقُمرية حماران

اعتلت حُمرة الخجل خديها:

- آسفة يا ريحانة، لم أكن أعرف.

- لا تعتذري إنه يُسعدني أن أكون جميلة مثلهما.

قالت الصبية ذلك ثم غادرت لجلب الماء من البئر..

**

بعد رحيلها تساءلت جومانا:

- إنها المرة الأولى التي أشاهد فيها بشريًا يشعر بالسعادة لأن أحدهم شبهه بالحمار..

- ريحانة مختلفة قليلًا.. إنها تنظر للأشياء بطريقة مغايرة.. إنها تعتقد مثلًا أن الأموات لا ينتهون بل ينتقلون لأرض عُلوية تُسمى أرض الأرواح وقد ضبطتها ذات مرة تحاول قتل نفسها..

- لماذا؟!

- قالت أنها كانت تريد الذهاب لوالدتها، كي لا تتركها هناك وحيدة.

وأخبرها مَيثم أمرًا آخر:

- ألم تلاحظي أن الإصبع الكبير لقدمها مبتور؟

- بلى، لاحظت عندما جاءت وعانقتني.

- لقد قامت ببتره بنفسها.

- لماذا؟!

- لأنها تعتقد أنها لو وضعته تحت التراب وقامت بسقايته كل يوم فإن إصبعها مع الأيام سوف يكبر ويصبح قدمًا كاملة .. فتُقدمها لي حتى أقوم بوضعها مكان قدمي المبتورة.

ابتسمت جومانا لذلك الخيال الواسع وسألت:

- وماذا بشأن الحمارين؟!

- تعدهما أعزَّ الأصدقاء، إنها تعتقد أنهما يستطيعان فهم كلامها فتحادثهما طوال الوقت؛ لذلك فإنها شعرت بالإطراء عندما قمتِ بتشبيهها بهما - ابتسم وهو يكمل:

- وإن لم يخب ظني فأعتقد أنكِ اليوم سوف تكونين الموضوع الشيق الذي ستتحدث فيه معهما أثناء الطريق إلى البئر، وأثناء العودة..

**



في ذلك النهار لم تغادر جومانا منزله وبقيت فيه حتى عادت ريحانة من البئر، وقضى الثلاثة يومًا جميلًا برفقة بعضهم بعضًا.. وقد تكرر ذلك الأمر في اليوم التالي والذي يليه..

ومع الأيام توثقت علاقتها بتلك العائلة أكثر وأصبحت صديقة مقربة لهما.

وبدافع تلك الصداقة حاولت ذات مرة أن تنصحه بالتوقف عن السرقة وقدمت له عرضًا يضمن له حياة كريمة:

- أستطيع إعطاءك مالًا من خزينة عائلتنا تُدبر به شؤون حياتك.

- لا أحب أن أكون عالة على أحد، أنا أكسب المال بعرق جبيني.

- عرق جبينك؟.. أنت لص يا مَيثم !!

- لص شريف.

- ليس هناك لص شريف، وآخر سيئ إنهما الشيء ذاته.

قال منفعلًا:

- ولكن عندما يهدد الجوع عائلتك بالموت، وتضطرين لبتر قدمك من أجل إطعامهم إياها ستعرفين حينها أن اللصوصية عمل شريف.

قالت والفزع في عينيها:

- أبترت قدمك بنفسك، لتقدمها طعامًا لعائلتك؟!

صمت وكأنه ندم على إفشائه ذلك السر، ولكن لأن الكلمة التي تخرج من فم صاحبها لا يُمكن استعادتها فقد وجد نفسه مضطرًا لشرح السبب الذي جعله يقوم بذلك الفعل:

- من وقت لآخر تمر قرية الجسَّاسة بسنوات قحط شديدة، تتوقف فيها السماء عن المطر فتهلك المواشي والثمار ويموت الناس جوعًا وعطشًا..

٧

كان مَيثم في الماضي يعتمد على الصدقات ومساعدات الآخرين لإطعام ابنته.. وفي أحد الأعوام مرّت قرية الجسّاسة بقحط شديد لم يسبق لها أن مرّت به من قبل.

في ذلك العام توقف الآخرون عن مساعدته نهائيًّا؛ ليس جحودًا أو أنانية ولكن لأن كل ربّ أسرة كان بالكاد يستطيع أن يُطعم أفراد أسرته..

فكادت ابنته ريحانة أن تُلاقي حتفها بسبب الجوع..

ولما كان مَيثم قد خسر أفراد عائلته الآخرين ولم يتبقَّ له إلا تلك الابنة فإنه لم يكن مستعدًّا لخسارتها بأي ثمن، ولأجل هذا فإنه اتخذ أحد أصعب القرارات التي اتخذها في حياته..

في ذلك اليوم غادر مَيثم المنزل بقدمين وحين عاد كان يملك قدمًا واحدة وعكازة خشبية يتوكأ عليها، و يحمل فوق كتفه لحمة طازجة ملفوفة في قطعة من القماش.

سألته جومانا قاطعة عليه سرد القصة:

- ألم تنتبه ابنتك للأمر؟!

- كانت لتوها قد بلغت الثلاثة أعوام ولم تنتبه.

- هل قمت بمشاركتها الطعام ؟!

- لا.

تنهدت وقالت بارتياح: هذا يهوّن من بشاعة الأمر قليلًا

- ولكنها رفضت أن تأكل وحدها.

- وأكلت معها؟!!

رغم أن الموضوع كان يدفع للاشمئزاز، إلا أن مَيثم ابتسم وقال ساخرًا من ماضيه:

- مع بعض التوابل، كان مذاق اللحم رائعًا..

قالها بطريقة فكاهية؛ مما جعل المشاعر تختلط بداخل الجنية:

- ما عدتُ أعرف كيف أفعل، أأبكي من هذه القصة أم أضحك

ابتسم لها مَيثم وقال:

- اضحكي؛ فالرب يحب الذين يضحكون.

ضحكت جومانا، فمد لها قدمه الوحيدة وقال مازحًا:

- تأخذين لقمة؟!

وتعالت أصوات ضحكها أكثر.

أكمل مَيثم سرد القصة:

- بعد ذلك العام أقسمتُ أن أتوقف عن أخذ المعونات من الآخرين، وأن أعمل بعرق جبيني لتأمين لقمة العيش لابنتي.

- ألم تجد عملًا غير اللصوصية؟!

- لم يرضَ أحد من القرية أن يقبلني أجيرًا لديه، كانوا يقولون إنني أسود ومبتور القدم وهذا فأل سيئ قد يضر بالتجارة، فلم يكن أمامي إلا أن أكون لصًّا.

بعد سماعها تلك القصة تعلمت جومانا درسًا لن تنساه وهو ألّا تطلق الأحكام على أفعال الآخرين قبل أن تفهم الأسباب التي جعلتهم يقومون بتلك الأفعال:

- أريد أن أكون لصة معك

- ألم تقولي إن اللصوصية عمل سيئ؟!

- اقتنعت أنك لص شريف، أتوافق أن تجعلني شريكة معك؟!

وبعد إلحاح وإقناع وافق مَيثم على أن يُشركها معه، ولكن بثلاثة شروط وقال يُعددها على أصابع يده:

- ألّا نسرق من الفقراء.. وأن نُعطي المحتاجين مما نغنمه.. ولا نعتدي على أعراض الآخرين.

وهكذا بدلًا من أن تُقنعه بالكفّ عن السرقة أصبحت شريكته في اللصوصية.

كانت شراكة جادة صادقة.. يُخططان فيها لكل شيء وكل واحد منهما عليه تنفيذ الجزء المسؤول عنه في الخطة.. والأهم من هذا وذاك هو الصدق والأمانة بينهما..

ولكن الشيء الوحيد الذي كانت جومانا تفعله من وراء شريكها هو أنّها بعد كل سرقة تنفذها معه كانت تقوم بتعويض الشخص المسروق ببعض المال الذي تأخذه من خزينة عائلتها.

**

سارت صداقتهما على خير ما يرام..

حتى جاء ذلك اليوم الذي سيختلف بعده كل شيء وإلى الأبد..

٨

فجرًا وفي أحد الأيام:

يستفيق الأب مَيثم من رقاده.. يتناول عكازه المسنود بجوار رأسه ويتوكأ عليه متجهًا إلى الغرفة المجاورة - غرفة ابنته - يطرق عليها الباب ويهمس كي لا يُفزعها:

- لقد حان الوقت يا ريحانة.

بعد لحظات تفتح ريحانة الباب، ترفع رأسها وتنظر لوالدها بعين مغلقة وأخرى نصف مفتوحة وخطوط وسادة القش باقية على وجهها الأسود ذي الملامح الجميلة..

ينحني عليها يُعانقها ثم يقول:

- صباح الخير، أيتها القملة الصغيرة المزعجة..

تبتسم ريحانة فتظهر غمازتها على خدها الأيسر، ثم تقوم كالعادة بالتملص من حضنه والاتجاه نحو الباب لتغادر المنزل من أجل جلب الماء من البئر.

يلحقها مَيثم بكلماته قبل أن تغادر:

- لا تأخذي **قُمرية** معكِ؛ سآخذها للسوق اليوم لشراء بعض الحاجيات.

تلتفت إليه وتهزُّ رأسها بعلامة " حاضر " ثم تذهب إلى الزريبة القريبة من المنزل..

**

كعادتها قبل أن تُحرر الحمار من مربطه تقوم ريحانة أولًا بالتربيت على رأسه ومحادثته:

- أعلم أنك مُرهق مثلي يا **سامري** وأنك تفضل البقاء بجانب زوجتك **قُمرية** تنعم بدفئها ودفء الزريبة..

ثم تكمل كلامها بينما تُثبت دلاء الماء الخشبية على متنه:

- ولكن على أحدنا أن يجلب الماء وإلا متنا عطشًا، أليس كذلك؟

يلتفت سامري نحو قُمرية - كانت التفاتة عادية - ولكن الصبية ريحانة تفسر تلك الإلتفاته بطريقتها الخاصة فتقول:

- لا.. قُمرية لن ترافقنا اليوم؛ لأنها سترافق والدي للسوق.

**

حين تنتهي بعد قليل من تثبيت الدلاء على متنه تقول له استعدادًا للرحيل:

- سوف نستمتع في الطريق كعادتنا، أنا أتحدث وأنت تُنصت.

في تلك اللحظة يهزّ سامري رأسه للتخلص من بعض الحشرات المزعجة، ولكن ريحانة تفسر هزة الرأس تلك كما لو أنها علامة على الموافقة فتقول له:

- لنذهب، هيا.

سار الاثنان بمحاذاة بعضهما بعضًا، وغادرا الزريبة.

وبعد ساعة من ذلك: كانا قد قطعا منتصف الطريق وهما يقضيان أوقاتًا ممتعة - ريحانة تُثرثر وهو يُصغي إليها ويهز ذيله - كان كل شيء يبدو طبيعيًّا حتى ظهرت لهما تلك الفتاة الجميلة..

**

فتاة بيضاء البشرة ذات قوام رشيق..

لها وجه حسن الملامح وترتدي ثيابًا سوداء طويلة ساترة، قالت بأسلوب لطيف مهذب:

- أتستطيعين مساعدتي أيتها الصبية الطيبة؟!

كان والدها - والد ريحانة - قد أمرها أكثر من مرة بعدم التحدث للغرباء، ولكن منظر تلك الفتاة لم يكن يوحي بالنسبة إليها بالخطر فتوقفت وقالت:

- سأفعل إن كنت قادرة على المساعدة يا سيدتي.

قالت الفتاة البيضاء ذات القوام الرشيق:

- والدي مريض، وهو عاجز تمامًا عن الحركة.

- أتريدين أن أحضر له حكيم قريتنا، لسانه طويل لكنه بارع في المعالجة.

- لا.. فهذا سيزيد من تكلفة العلاج؛ فالحكماء يأخذون أجرًا مضاعفًا عندما يذهبون لزيارة مريض في منزله.

أدركت ريحانة مقصدها، فقالت وهي تُربت على رأس حمارها:

- تريدين من سامري أن ينقل والدكِ لمنزل الحكيم؟

- نعم، إن لم يكن لديكِ مانع أو حرج.

أطلق الحمار زفيرًا من منخريه، فالتفت له ريحانة وهمست:

- أعلم أنه سيقلق عندما نتأخر بالرجوع إليه، ولكن والدها بحاجة للمساعدة.

خفض سامري رأسه، فقالت ريحانة ببراءة:

- كنت أعلم أنك حمار أصيل وطيب القلب - ثم التفت نحو الفتاة وقالت لها:

- خذينا إليه، سنقوم بنقله لمنزل الحكيم.

في تلك اللحظة هبّت نسمة هواء خفيفة حركت ثياب الفتاة البيضاء ذات القوام الرشيق مما كشف جزءًا قليلًا عن ساقها لكنها وبردة فعل سريعة قامت بستر نفسها.

لم تنتبه ريحانة لما كشفته نسمة الهواء..

ولكن الحمار لمح تلك الساق، فاتسع محجرا عينيه لفرط الرعب حتى كادت عيناه أن تسقطا للخارج وبدأ ينهق بصوت عالٍ وكأنه يريد تحذير ريحانة وإخبارها بما رآه..

لم تفهم ريحانة ما الذي يرمي إليه حمارها بالضبط ولكنها أحست بالخطر الذي كان يريد إخبارها به، فتراجعت خطوتين إلى الخلف وقالت:

- آآه.. أعتقد أن والدي سيغضب منّا لو تأخرنا عليه.

لكنها قبل أن تستدير وترحل أمسكتها الفتاة من يدها، وابتسمت بخبث لها وقالت:

- وأنا أيضًا.. والدي سيغضب مني إن عُدت إليه بدون وجبة طعامه.

لم تكن ريحانة تستطيع المقاومة - فجسدها كان مشلولًا بسبب تأثير طلسم ما كانت تلك الفتاة تُمارسه عليها - ولكن سامري استطاع أن يستدير ويلوذ بالفرار.

الباب الثاني

١

لم تكن البئر بعيدة عن القرية.

وربما لهذا السبب بدأ الأب مَيثم يشعر بالقلق حيال تأخر ابنته كل ذلك الوقت وبدأ - بينما كان في السوق - يُردد بصره نحو المدخل علّه يلمح عودتها في أي لحظة.

وفي إحدى المرات التي كان ينظر فيها للمدخل لمح شيئًا أثار الرعب في قلبه: لقد رأى حماره يدخل إلى السوق وحيدًا وبحالة هائجة فأدرك أن خطبًا ما قد وقع..

ترك من يده كل شيء ثم مستندًا على عكازه الخشبي راح يعرج بأقصى ما تتيح له قدمه الوحيدة من سرعة حتى اعترض طريق الحمار وصاح عليه:

- أين ريحانة بحق الله، لماذا لم تعد معك يا سامري ؟!!

نهق الحمار لعدة مرات وكأنه بنهيقه ذاك كان يحاول أن يشرح له ولكل أفراد القرية المجتمعين حوله ما حدث، ولكن لم يفهمه أحد غير زوجته قُمرية التي بدأت تُشاركه النهيق..

صاح مَيثم عليه:

- خذنا إلى حيث كانت معك آخر مرة !!

**

ورغم أن أفراد القرية كانوا يكرهون مَيثم - لأنه لص - إلا أنهم عند المصيبة نسوا شعورهم تجاهه وخرجوا وراءه جميعًا ليقدموا له العون ويد المساعدة..

قادهم سامري للموقع..

ولكن كل ما وجدوه هناك كان فردة حذاء مقلوبة..

همس مَيثم وهو يُمسك فردة الحذاء ويضمها إلى قلبه:

- إنها فردة حذائها.

عرف الجميع - ومن خلال وقائع قديمة مشابهة - هويّة الخاطف وأدركوا أن ريحانة اختفت وأنها لن تعود أبدًا..

كان مَيثم يُدرك تلك الحقيقة أيضًا.. ولكنه يعرف حلًّا ربما يُنجد ابنته من تلك الورطة..

امتطى ظهر حماره، قال وعيناه ممتلئتان بدموع الرجاء:

- أعلم أنك تفهم لغة البشر كما كانت ريحانة تقول يا سامري؛ لذلك اسمعني جيدًا - وأضاف بصوت خائف باكٍ: إذا كنت تريد لصديقتك أن تعود.. فاركض نحو هذا الاتجاه بكل ما وهبك الرب من سرعة..

ركض سامري شرقًا نحو الغابة المظلمة..

كان سريعًا مثل حصان مجنّح، كان سريعًا وكأن رياح الله كانت تحمله.

**

وبعد وقت قصير..

وحين أصبح مَيثم وجهًا لوجه مع الغابة المظلمة اقشعَرَّ بدنه..

لم تكن مَهابة منظر الغابة هي ما سببت له تلك القشعريرة؛ بل لأنه أحس بأن هناك مخلوقًا مخيفًا كان يراقبه من داخل الغابة..

قال وهو يترجّل عن ظهر حماره:

- ابقَ أنت هنا.

ثم مستندًا على عكازه الخشبي سار نحو المدخل..

وما كان يعلم أنه سائر نحو حتفه..



٢

فما أن وطئت قدماه أرض الغابة حتى هجمت عليه الحارسة **كوبرا أفعى الجن تارا** من بين الأشجار .. لكنها قبل أن تصل إليه بضربتها القاتلة صاح أحدهم عليها قائلًا:

- تارا .. لا .. أرجوك .. إنه صديقي!!!

أوقفت تارا ضربتها احترامًا لصاحبة الصوت، لكنها كانت مصممة على القيام بواجبها:

- لقد دخل الغابة ويجب أن يُقتل؛ **إنه قانون العائلة.**

اختفت جومانا من مكانها وحين ظهرت كانت تقف في المسافة الفاصلة بين تارا وبين مَيثم وقد تحول شعرها وعيناها للون الأحمر الغاضب قالت وهي تستعد لخوض النزال:

- كلّ من يحاول أذيّة صديقي هو عدوّي؛ **إنّه قانون الصداقة.**

بالرغم من قوة جومانا إلا أن تارا كان بوسعها أن تتجاوزها بسهولة وتصل للإنسي وتقتله، لكنها بدلًا عن ذلك أغمضت عينيها وأشارت برأسها الضخم نحو مخرج الغابة، وقالت:

- أخرجيه من هنا بسرعة

- شكرًا تارا، لن أنسى لكِ هذا المعروف أبدًا

**

انتقلت جومانا به إلى خارج الغابة، وقالت تعاتبه:

- ألم أحذرك من القدوم إلى هنا، ما الذي حدث لعقلك؟!!

- أرجوكِ يا جومانا أنقذيها، لقد قام السعالي بخطف ريحانة!!

- أين حدث هذا ومتى؟!!

- قبل قليل، في الطريق المؤدية للبئر - وأردف متوسلًا:

- إنها السبب الوحيد الذي أعيش لأجله؛ فبحق صداقتنا أنقذيها.

جومانا تُدرك حجم قوتها - فهي ابنة جبّار الأباطرة وقد ورثت عنه الكثير من قوته - ولكنها غير مُدربة على القتال وبالتالي فإنها لن تكون قادرة على التسلل إلى جبال السعالي وحدها.

فكرت بطلب المساعدة من أفراد عائلتها، لكنها سرعان ما استبعدت تلك الفكرة من رأسها فقد تذكرت أن عائلتها لا يعرفون شيئًا عن علاقتها بـ مَيثم وربما لو عرفوا لأدخلها ذلك الأمر في مأزق أكبر.

إنها تُحب مَيثم - تحبه كصديق وتجد فيه ملاذها - وهي مستعدة لأن
ـل كل ما تستطيع لأجل تلك الصداقة:

- عُد لمنزلك، وأنا سآتيك بها.

وما كاد مَيثم أن يرمش بعينيه حتى كانت جومانا قد اختفت من أمامه
تنقلت لمكان آخر..

**

داخل الغابة المظلمة:

بقيت كوبرا أفعى الجن تراقب بعينيها ابتعاد مَيثم من هناك.. وبينما
كانت تفعل ذلك إذ أحسّت بأن هناك عيونًا تراقبها من الخلف، فالتفتت
سريعًا ولكنها لم تجد أحدًا..

ورغم ذلك إلا أنها كحارسة لغابة الأباطرة تعلمت أن تثق بإحساسها؛
فزحفت متراجعة للوراء بضعة أمتار وجعلت تتحسس المكان بطرف
لسانها الأسود..

ثم فجأة توقفت عن التحسس وأعادت لسانها لداخل فمها، اتسعت
عيناها وأدركت أن مصيبة كبيرة في طريقها للحدوث..

٣

كهف يملؤه الوسخ والقاذورات فوق جبل شاهق الارتفاع، وبالداخل رجل عجوز اسمه " **حجّاج** " يجلس وحيدًا فوق متكأ حجري ويقوم بحدِّ أنيابه الطويلة بمبرد من الحديد ويُغني:

" يا بُنيتي .. بطني .. يشتهي لحم الإنسي ..
إن عُدتِ دون زادي .. غرستُ فيكِ نابي "

بعد قليل تعود ابنته " **غَليلة** " وبيدها صبية سوداء صغيرة هي بمثابة وجبة الطعام له؛ فما أن يراها حجّاج حتى يترك مبرد الحديد من يده وينقضّ عليها ليفترسها.

ولكن قبل أن تصل أنيابه لعُنقها تقول غَليلة محذرة:

- سيحدث معك كما المرة السابقة.

يتوقف العجوز متذكرًا ما حدث معه في المرة السابقة عندما حاول أكل فريسته حية فتحطمت بعض أسنانه بسبب قساوة اللحم والعظام، فيقول معترضًا:

- ولكني أحب اللحم نيئًا.

ترد عليه بحنان الابنة التي تخاف على مصلحة والدها المُسن:

- ولكنه بات قاسيًا عليك ويُتعب بطنك - وأضافت مقترحة:

- دعني أطبخه لك؛ فيسهل عليك مضغه وهضمه.

متأففًا وهو يترك من يده الصبية:

- عجلي؛ فالجوع ينهشني.

- حاضر يا أبي..

**

في الخارج:

ملأت غَليلة قدر الطبخ بالماء وأوقدت تحته نارًا هادئة، وبينما كانت تنتظر وصول الماء لدرجة الغليان إذ لفت انتباهها ذلك الهدوء والانضباط الغريب الذي كانت تتحلى به الصبية السوداء.

لقد سبق لها أن اصطادت رجالًا ونساء وصِبيانًا من قبل..

وجميعهم دون استثناء إما كانوا يحاولون المقاومة أو الصراخ أو التوسل بإخلاء السبيل ولكن هذه الصبية كانت مختلفة عن أي طريدة اصطادتها من قبل:

- لماذا أنتِ هادئة هكذا؟!.. ألستِ خائفة؟!

بثقة غير مبررة أجابت ريحانة:

- أنتِ من يجب عليها أن تخاف، وليس أنا.

للحظة شعرت السعلوّة برعشة الرعب من ذلك الرد، فأجابت بحذر مكتوم:

- ولماذا أنا من يجب عليها أن تخاف؟!

- لأنكِ تركتِ صديقي يذهب.

زال الرعب من نفسها وحلّ مكانه ابتسامة ساخرة:

- لا تقولي إنكِ تظنين أن حماركِ ذاك سيأتي لينقذكِ؟!!

- لا أظن، أنا مؤمنة بذلك.

لم تكترث غَليلة لما سمعته واعتقدت أنه تخاريف صبية ذات خيال جامح.. ثم أخرجت من جيب ثوبها قنينة صغيرة فيها سائل يُشبه الماء وقربته من فم ريحانة وأمرتها:

- تجرعيه.

لم تكن ريحانة تعلم شيئًا عن ذلك الشراب، ولكن السعلوّة أرغمتها على شربه بالقوة، وبعد أن استقر السائل الشفاف في معدتها الصغيرة سألت:

- ما هذا؟!

أجابتها غَليلة وهي تُلقي القارورة خلفها:

- شراب سيُفقدكِ وعيك فلا تشعرين بألم الموت.

- ألديكِ منه المزيد؟!

ساخرة:

- أأعجبكِ طعمه يا عزيزتي؟!

قالت وهي تفقد وعيها شيئًا فشيئًا:

- لا، ولكن لأنكِ ستحتاجين إليه أنتِ ووالدكِ بعد قليل.

**

في الحقيقة لقد أُعجبت السعلوّة بها..

لذلك فقد شعرت عليها بالأسف - وكانت تلك هي المرة الأولى التي تشعر فيها بالأسف تجاه فريسة اصطادتها - وربما لو أن والدها حجّاج كان أقل جوعًا مما كان عليه ذلك اليوم لكانت قد فكت وثاقها وأعادتها بسلام إلى القرية.

**

بعد قليل:

بدأت المياه بالغليان وحان الوقت لذبح الطريدة وإلقاء لحمها داخل القدر وتركها لمدة كافية حتى ينضج اللحم ويلين ويصبح أسهل في المضغ والهضم.

لم تكن غَليلة بحاجة للسكين لجز عنق الصبية فقد كانت أظافرها الطويلة تفي بالغرض وأكثر.

قربت أظافرها من عُنق ريحانة ولكنها قبل أن تفصلها من مكانها سمعت صوتًا - يُشبه اصطكاك الحجر على الحجر - أثار ذلك الصوت انتباهها فذهبت بحذر لتستطلع الأمر..

ولكنها لم تجد شيئًا فاعتقدت أن ما سمعته كان بسبب الهواء، وقررت أن تعود لإكمال الطبخ.

٤

حين انتهى الطبخ أخيرًا..

عادت غَليلة لداخل الكهف وبيدها طبق طافح باللحم الساخن المقطَّع أوصالًا صغيرة..

وضعته أرضًا وقربته منه وقالت:

- هاكَ طعامك..

انقض حجّاج على اللحم وجعل يأكل منه..

وبينما كان يمضغ الطعام انتبه إلى أن ابنته لا تشاركه فقال:

- ألستِ جائعة؟!

- لا أشعر بالرغبة في الأكل..

- لا تقولي إنكِ أشفقتِ عليها..

- لا، لم أشفق عليها.. لقد تلذذت في قتلها..

- ما الأمر إذًا؟

- لا شيء، كُل بالهناء والشفاء.

ما أن انتهى حجّاج من الأكل حتى غادر الكهف..

غادر ليحرك جسده قليلًا من أجل تحسين قدرة معدته على الهضم، ولكنه خارج الكهف شاهد منظرًا أثار حيرته وغرابته: لقد شاهد تلك الصبية السوداء - ريحانة - وقد كانت نائمة..

قال يخاطب ابنته:

- إذا كانت الصبية لا تزال على قيد الحياة، فلحم من ذاك الذي طبختِه لي؟

خرجت غَليلة من داخل الكهف وسارت نحوه..

وكانت ملامحها تختلف وتتبدل في كل خطوة تسيرها باتجاهه حتى إذا اقتربت منه أصبحت فتاة أخرى كان يراها لأول مرة: فتاة لها عينان بُندقيتا اللون، ويغطي النمش بعض ملامح وجهها وكانت رائحة الياسمين تفوح منها:

- اللحم الذي طبخته لك، كان لحم ابنتك غَليلة.

قالت ذلك ثم ودون أن تعطيه فرصة ليستوعب الخدعة التي نصبتها له كانت قد اخترقت بيدها قفصه الصدري ونفذت بها من الجهة الأخرى لجسده..

كان يُفترض به أن يموت فورًا؛ فقد أصبح قلبه في يدها

ولكن ذلك السعلو العجوز استطاع بطريقة ما أن يستجمع طاقته الأخيرة ويصرخ مستنجدًا بأفراد قبيلته قبل أن تقوم جومانا بغرس يدها الثانية في جسده وتُسكته للأبد.

لم تكن صرخته عالية بالقدر الكافي.. ورغم ذلك إلا أن جومانا ومن باب الاحتياط قامت بحمل ريحانة بين يديها وهمّت بالاختفاء بها من ذلك المكان..

ولكنها لم تستطع الاختفاء، وكأن خللًا ما أصاب قوة النار التي بداخلها..

حاولت مرة ثانية وثالثة ولكن دون فائدة وحين التفتت للوراء عرفت السبب:

لقد كانت هناك سعلوّة تحدق إليها.

كانت جومانا دائمًا ترفض نصائح والدها بالخضوع للتدريبات وتكتفي بقوتها الطبيعية؛ وهذا السبب تحديدًا هو ما جعلها غير قادرة على الاختفاء في تلك اللحظة - فالجن بطبيعتهم يفقدون القدرة على الاختفاء مع وجود شخص يحدق إليهم دون أن ترمش عيناه - ويبدو أن تلك السعلوّة كانت تعرف تلك المعلومة؛ لذلك حرصت ألّا ترمش بعينيها وأبقتهما مفتوحتين طوال الوقت.

أحست جومانا بالخطر وقررت مهاجمتها..

ولكنها ما كادت أن تخطوَ إليها أول خطوة حتى توقفت..

لم تتوقف لأن فكرة أخرى طرأت ببالها.. أو لأنها وجدت حلًّا أسهل لأزمتها.. بل لأن جيشًا من السعالي في تلك اللحظة ظهر لها من جميع الاتجاهات وحاوطها..

بدأ أفراد القبيلة يصرخون عليها ويهتفون كجيش من القردة الغاضبة؛ فأدركت حينها أن لا شيء سوف يرضيهم إلا موتها وقررت ألّا تناولهم إياه قبل أن تقطف منهم الكثير من الأرواح..

فاستعدت للمواجهة..

ولكن فجأة،

ساد في المكان صمت غريب.

٥

تلا ذلك الصمت خروج شخص ما من بين السعالي: كانت الخارجة سعلوة هرمة اسمها " **الغيساء** " وقد كان لها ظهر مُنحنٍ للأمام قليلًا، ومشية عرجاء بسبب عدم تناسق أطوال قدميها اللتين كانت إحداهما لإنسيّة والأخرى لحمار.

تقدمت الغيساء أكثر حتى وقفت أمامها وسألت:

- من أي عوائل الجن أنتِ أيتها الساقطة؟!

- ..

صرخت الغيساء:

- تكلمي عليكِ اللعنة!!

- لماذا تسألين عن عائلتي، هم لا شأن لهم بهذا الأمر..

ابتسمت السعلوّة الهرمة فظهرت أسنانها الحادة الصفراء، وأدركت الإجابة:

- أنتِ من الأباطرة؛ وإلا لما كنتِ كتمتِ عني اسمهم.

صمتت جومانا، فكان صمتها ذاك بمثابة قولها " نعم "

- ابنة أي فحل منهم؟!

- جبّار.

ما أن سمعت الغيساء بذلك الاسم حتى بدا عليها القلق؛ إنها تعرف ما قد يفعله بها جبّار وبأفراد قبيلتها لو أن أحدًا منهم تجرأ وآذى ابنته فقالت:

- غادري هذا المكان ولا تعودي إليه أبدًا.

ولكن الغيساء ما كادت أن تقول ذلك حتى ثار عليها أفراد القبيلة وعادوا للهتاف والصراخ، فأدركت كبيرة السعالي ما بنفوس قومها فقالت لترضيهم:

- ولكن هذه الصبية السوداء ستبقى هنا.

قامت جومانا بمحاوطة ريحانة بين يديها كردة فعل دفاعية، وسألت بنبرة معترضة:

- لماذا تبقى هنا؟!

- سيذهب دمها مقابل الدماء التي سفكتِها..

- وإن قلتُ لا؟

- لم أكن أطلب رأيكِ لتقولي نعم أو لا.

وفجأة قام ثلاثة من السعالي الأشداء بتقييد يدي جومانا ومنعها من الحركة.

قامت الغيساء بأخذ ريحانة..

حملتها بين يديها عاليًا وأعلنت لأفراد قومها:

- دم الصبية السوداء هذه مقابل دماء غَليلة وحجّاج!!

وكررت بصوت أعلى:

- دم الصبية السوداء هذه مقابل دماء غَليلة وحجّاج!!

وأعلى:

- دم الصبية السوداء هذه مقابل دماء غَليلة وحجّاج!!

هتف أفراد القبيلة يشجعون قرار الكبيرة..

حاولت جومانا بكل قوتها أن تحرر نفسها لتُنقذ ريحانة، ولكن السعالي الأشداء الثلاثة كانوا يُطبقون عليها الوثاق ولا يفسحون لها مجالًا للحركة فما عاد بإمكانها أن تصنع شيئًا غير النظر إلى مشهد الإعدام.

رفعت الغيساء يدها ذات الأظافر الطويلة المتسخة وهمّت بالنزول بها نحو عُنق ريحانة..

لم تحتمل جومانا فظاعة المنظر فأغمضت عينيها وصاحت..

صاحت بكل ما أوتيت من قوة..

حين فتحت عينيها بعد قليل رأت رأسًا يتدحرج عند قدميها، ولكن ذلك الرأس المتدحرج لم يكن رأس ريحانة بل كان رأس السعلوة الغيساء.

اعتقدت للحظة أنها كانت تتوهم ولكنها حين نظرت فيما حولها رأت السعالي - كل السعالي - وقد سقطت رؤوسهم عن أجسادهم وتناثرت أرضًا.

كان المنظر رهيبًا كما لو أن السماء أمطرت رؤوسًا مقطوعة.

**

لم تكن جومانا تعلم قبل هذه المرة أنها تملك بداخلها كل تلك القوة الهائلة؛ لقد استطاعت بصرخة واحدة أطلقتها أن تُبيد قبيلة كاملة من السعالي.

قامت بحمل ريحانة وغادرت بها من هناك.

لم تكن تستطيع استخدام قوة الانتقال؛ لقد استهلكت جزءًا كبيرًا من طاقتها فكان عليها أن تقطع المسافة إلى قرية الجسَّاسة سيرًا على الأقدام..

**

رغم الإرهاق والتعب إلا أنها كانت سعيدة..

سعيدة لأنها أنقذت ريحانة، واستطاعت أن تكون عند حُسن ظن صديقها..

وكانت - بينما هي عائدة في الطريق إليه - تتوق لرؤية الغمازة اللطيفة التي سوف ترتسم على صفحة خده الأيسر عندما يراها وقد عادت إليه بابنته.

كانت تعلم أنه سوف يسألها لاحقًا عن السبب الذي جعلها تُضحي بحياتها، وكانت قد حضرّت الإجابة:

" الصداقة شيء يستحق أن يُغامر المرء بحياته لأجله "

**

وحين وصلت إلى منزل مَيثم طرقت عليه الباب..

انتظرت قليلًا ولكنه لم يفتح لها..

أثار ذلك الأمر ريبتها في البداية؛ فقد توقعت أنه سوف يكون على قيد الانتظار وأنها ما أن تطرق عليه الباب حتى يطير إليها كي يطمئن على ابنته.

عادت تطرق الباب ولكن بقوة أكبر هذه المرة.

غير أنها لم تتلقَّ إجابة أيضًا؛ فحطمت الباب ودخلت.

**

ولكنها قبل أن تخطو في باحة المنزل خطوة واحدة تجمدت مكانها واقفة وكأن شللًا ما أصاب أطرافها؛ لقد شاهدت ما أثار الرعب في قلبها:

دماء..

دماء كثيرة تسيل من أسفل باب إحدى الغرف.

**

أنزلت ريحانة ومددتها أرضًا، ثم ذهبت لترى مصدر تلك الدماء وحين فتحت الباب:

شاهدت شيئًا تمنت لو أنها ماتت قبل أن تراه.

٧

كان مَيثم مُلقًا على الأرض وغاطسًا في بركة من الدماء.

دماء كثيرة كانت تنثال من جسده، وشبح الموت بأجنحته اللا مرئية يطوف حول رأسه.

كان يشعر بعطش شديد وألم ساحق يجثم فوق قلبه، ورغم ذلك إلا أنه حين فتح فمه لم يطلب منها أن تسقيه الماء أو أن تقدم له الدواء بل قال:

- كيف ابنتي؟!

كانت رعشة الخوف تكمم فمها، ولم تعد قادرة على الكلام.

- هل استطعتِ إنقاذها يا جومانا؟ .. أهي بخير؟

- نعم، إنها بخير.

ما أن سمع ذلك حتى ابتسم.. ابتسم فتكونت غمازة لطيفة على صفحة خده الأيسر وقال:

- كنتُ واثقًا من أنكِ لن تخذليني.

اقتربت منه بقدميها الحافيتين مجتازة بركة الدماء، انحنت عليه وقالت:

- دعني أرَ جُرحك، فربما..

قاطعها: لا داعي لذلك، إنه مُميت ولا شفاء منه..

أسندت بيديها رأسه، قالت والغضب ينفث نيرانه من عينيها:

- من صنع بك هذا ؟!!

- لا أعلم.

تأملت عينيه وقالت:

- الطعنة في صدرك، وهذا يعني أنك رأيت الفاعل..

- سأخبركِ، ولكن بشرط ألّا تفعلي له شيئًا

- صدقني لن أدخر وسيلة في الانتقام ممن آذاك

- إنها أمنيتي الأخيرة - وأضاف: أُخبركِ فلا تؤذينه، اتفقنا؟

- ..

- اتفقنا؟!!

- ..

- ويلكِ يا جومانا، ألا تنفذين لصديقك أمنيته الأخيرة؟!

- اتفقنا.

قال كاشفًا عن هوية الشخص الذي آذاه:

- إنها والدتك..

٨

شعرت جومانا وقتذاك بخليط من أحاسيس متناقضة: إنها تشعر بالخجل لأن والدتها السبب.. وتشعر بالندم .. ندم شديد لأنه كان ينبغي عليها أن تقطع علاقتها معه غير أنها تمادت في التعلق به حتى أوصلته إلى حتفه..

مد مَيثم يده الكبيرة السوداء إلى وجهها الرقيق الأبيض، قال وكأنه استطاع قراءة ما يدور برأسها:

- لا أريدكِ أن تندمي؛ فلقائي بكِ كان أجمل شيء حدث لي منذ سنوات طويلة.

- ألن نكون صديقين بعد هذا اليوم؟!

- سنكون، ولكننا لن نرى بعضنا أبدًا.

وقال يوصيها:

- اذكريني دائمًا؛ فالنسيان يؤلم الأموات في قبورهم..

قالت:

- سأهتم في غيابك بـ ريحانة.

- لا؛ فوالدتكِ لن تتركها وشأنها.

- وتتركها دون رعاية؟!

- اللص يتوقع الموت في أي لحظة، لذلك فقد أخبرتها بما يجب عليها فعله عندما يحيط بي مكروه ما؛ فلا تقلقي عليها.. إنها ستعرف كيف تتصرف.

ثم زحف بصعوبة للحائط الذي خلفه، استند عليه وقال:

- لقد خسرتُ الكثير من الدماء، أريد أن أموت لأرتاح ولكن هناك شيء يُثقل روحي ولا يسمح لها بالخروج.

- ما هو؟!

- إنه سر.. سر قديم احتفظت به لنفسي، أما الآن فأريد أن أتخلص منه كي تصبح روحي خفيفة فيكون بوسعها الإبحار إلى السماء.

أصغت إليه جومانا بكل جوارحها،

أما هو فقد ترقرقت عيناه بالدموع واستعد ليخبرها بالسر الأخير.

٩

- لقد وعيتُ في هذه الحياة وأنا أعمل كـ عبد.. عبد لدى إحدى العائلات الغنية في **ممالك التنين**، ومن بين سيدات تلك العائلة كانت هناك فتاة اسمها " **ريحانة** "

تلألأت عيناه لفرط الحنين عندما نطق اسمها، وابتسم ثغره لذِكرها.

أكمل قائلًا:

- جمعتنا قصة طويلة ولا أظن أني أملك وقتًا كافيًا لأقصها عليكِ ولكن ما يهم في هذه القصة هو أن كل واحد منّا وقع في حب الآخر وقررنا أن نهرب لنتزوج.. وهذا ما حدث..

هربا إلى مملكة أبابيل واستقرا في قرية الجسَّاسة، حيث رُزقا فيها بأول ثمرة حُب لهما وكان مولودًا ذكرًا..

وبعد سبع سنوات من ذلك.. وفي أحد الأيام وبينما كانت الزوجة حاملًا بطفلها الثاني إذ أُصيبت بمرض ما، فحملها زوجها للحكيم الذي قال له:

- حالتها خطيرة جدًّا وهي بحاجة للدواء وإلا فإنها ستموت، وسيموت الجنين الذي ببطنها.

كان الدواء متوفرًا في السوق لكنه باهظ الثمن ولا يستطيع مَيثم توفير قيمته.. وفي الوقت ذاته لم يكن يستطيع رؤية زوجته تموت أمامه ولا يفعل لها شيئًا:

- إنها زوجتي يا جومانا.. إنها المرأة التي تخلّت عن الثراء والجاه والعائلة وكل شيء لأجلي.

- وماذا فعلت؟!

أجاب بنبرة غامضة حزينة: جلبت لها الدواء.

- كيف تدبرت ثمنه؟!

أغمض مَيثم عينيه؛ كان يريد أن يحبس دموعه لكنها انهالت فوق خديه.

قال كاشفًا عن السر الخطير الذي كان يُثقل روحه:

- لقد قمتُ ببيع ابني ذو السبعة أعوام.

سألت بنبرة صوت فزعة:

- لمن؟

- لتاجر في سوق العبيد.

- وماذا فعلت زوجتك عندما عرفت بالحقيقة؟!

- ماتت حزنًا عليه.

وأكمل:

- كنت سأتبعها للموت، ولكن الحكيم قال إنه استطاع إنقاذ الجنين الذي ببطنها، فقررت أن أُكمل حياتي لأجل طفلتي التي أسميتها لاحقًا ريحانة على اسم والدتها.

- وابنك يا مَيثم، لماذا لم تحاول استعادته؟

- لم أستطع.. فالتاجر قال إن الولد أصبح مِلكًا له وإني إذا كنت أريده فيجب أن أشتريه بالسعر الجديد.. كان يريد فيه ضعف الثمن الذي بعته له.. فطلبت منه على الأقل أن يسمح لي بأن أحادثه للمرة الأخيرة ووافق..

في ذلك اليوم المشؤوم دخل مَيثم للمستودع - المستودع الذي كان التاجر يحتفظ فيه ببضاعته - كان الابن محبوسًا في قفص يُشبه أقفاص الحيوانات ويجلس في زاويته حزينًا مثل قُنفذ مخذول.

اقترب مَيثم منه وناداه باسمه:

- أيوب.

ولكن الصغير لم يلتفت له؛ فاعتقد مَيثم في البداية أن ابنه لم يسمع فناداه للمرة الثانية:

- أيتها القملة الصغيرة المزعجة، انظر هذا أنا أبوك..

أجاب دون أن يلتفت:

- أنا عبد، والعبد لا أب ولا أم له.

- ما هذا الكلام ؟.. من أخبرك بهذا الكلام يا بُني؟!

في تلك اللحظة جاء عمال التاجر وقاموا بحمل البضائع للرحيل، ومن ضمن البضائع المحمولة كان ذلك القفص الذي فيه القُنفذ المخذول.

حاول مَيثم إيقافهم لكن المسؤول عن تأمين القافلة وهو فارس ضخم الجثة ضربه على رأسه بقوة أفقدته وعيه.

بعد ساعة استفاق مَيثم وقد وجد نفسه وحيدًا في مستودع فارغ فركض بكل سرعته حتى أدرك قافلة التاجر.. كان يعلم أنه لن يستطيع استعادة ابنه مع وجود ذلك العدد من الحرّاس حوله ولكنه أراد فقط أن يقول له شيئًا:

- أرجوك سامحني يا بُني، قل بأنك تسامحني.

لم يُجبه أيوب؛ فاستمر مَيثم يركض خلف القافلة ويردد: " **أرجوك سامحني، قل بأنك تسامحني** " حتى نال منه التعب وسقط مكانه، وظل يراقب ابتعاد القافلة حتى ابتلعها الضباب واختفت.

١٠

حين انتهى من بوحه بذلك السر أحس أن روحه أصبحت خفيفة وأنها قد تفارق جسده في أي لحظة فطلب من جومانا أن تحضر له ورقة:

- أريد أن أترك رسالة لابنتي.

أحضرت له الورقة التي طلبها فقام بكتابة الرسالة " **رسالة كان إصبعه فيها القلم.. والحبر كان دمه النازف من جسده** " وحين انتهى من الكتابة ناولها الرسالة وطلب منها أن تُعطيها ابنته لاحقًا لتقرأها..

**

وامتدت بينهما - بين جومانا ومَيثم - دقائق صمت ثقيلة..

كان مَيثم من جهة يشعر بالراحة لتخلصه من ذلك السر وكان من جهة أخرى يشعر بالندم؛ فربما معرفة جومانا بذلك السر يجعلها تشعر بالعار لأنها صادقت شخصًا مثله..

وما كان يجعل خوفه مُضاعفًا هو معرفته بأنه لا يملك مزيدًا من الوقت ليُقنعها بأنه نادم على ما فعله وأنه يُدرك تمام الثقة بأنه اقترف ذنبًا عظيمًا لا يُغتفر..

وبينما كان غارقًا في هلاوسه الأخيرة، قالت له وكأنها أحسّت بما يفكر به:

- هناك عائلة نُولد وسطها، وأخرى نختارها بأنفسنا عندما نكبر.

ثم سألته:

- **أسمعت يومًا بال هيلانا ؟!**

حرك رأسه بعلامة " لا " فقالت له:

- **هيلانا تعني عائلة.**

وقالت له إن الهيلانا هو مُصطلح قديم عُرف في الحضارات القديمة، ومعناه الدقيق هو:

العائلة التي يختارها المرء لنفسه عندما يكبر..

وقالت تخبره بأحد أهم قوانين الهيلانا:

- في تلك العائلة ليس المهم أن يكون الأفراد فيما بينهم من جِنس أو لون أو عِرق واحد، في تلك العائلة ليس من المهم أن يكون الأفراد متقاربين بِصلة الدم .. المهم هو أنهم عند الحاجة يفدون بالدم بعضهم بعضًا.

ثم كما بادر هو بمد يده عند بداية العلاقة .. بادرت هي الآن بمد يدها عند النهاية وقالت:

- أنا وأنت هيلانا واحدة.

مدّ إليها يده وابتسم: أنا وأنتِ هيلانا واحدة.

ثم اختفت ابتسامته شيئًا فشيئًا وسقطت يده أرضًا.

**

سوف تكتشف مع الأيام القادمة أن:

المرء بوسعه احتمال كل أنواع الألم، إلا ألم فِراق الأحبة،

ذلك الفِراق الذي لا لقاء بعده.

**

أغلقت عينيه بيدها وتمنّت أن يُسامحه الرب على خطيئته.

ثم حملته لمقابر قرية الجسَّاسة كي تدفنه هناك، ولم تنسَ بالطبع أن تترك الرسالة التي كتبها عند رأس ابنته كي تقرأها عندما تفيق.. الرسالة التي كان مكتوبًا فيها بالدم:

" لقد ذهبتُ لوالدتك؛ حتى لا تبقى هناك وحيدة "

١١

حين انتهت جومانا من دفنه استدارت لتنصرف، ولكنها توقفت مكانها مدهوشة مما رأته.. لقد شاهدت أمامها آخر شخص كانت تتوقع أن تلقاه:

- أنتِ ؟؟



كان ذلك الشخص هو والدتها تاج؛ لذلك تعجبت من أن تراها في ذلك التوقيت وقد اعتقدت أنها سوف تختفي لشهور طويلة بعد قتلها مَيثم.

اندفعت بكل قوة لتثأر منها - لم تكن تنوي قتلها بالطبع - ولكنه التنفيس عن الغضب..

لم تشأ أن تدخل في عِراك مع ابنتها فتفادت تاج الهجمة ثم استدارت وقالت تعاتبها:

- لم أكن أعرف أنكِ بهذه الحقارة..

- الحقير هو من ينسى شناعة أفعاله، ويُحاسب الآخرين على ردود أفعالهم.

- منذ أن التقيتِ بهذا الإنسي يا جومانا وأنتِ تدفعين بنفسك للخطر دون حساب للعواقب؛ لذلك كان يجب عليَّ أن أقتله لكي أحميكِ من طيشك وتهورك.

- كيف قتلتِه وقد منحه والدي الحماية؟!!!

- لقد دخل الغابة المظلمة، فسقطت عنه حماية والدك وبات قتله مباحًا.

ربما كان ذلك الشِجار سببًا في تخفيف غضبها قليلًا، لم ينتهِ غضبها بالطبع لكنه خف للحد الذي جعلها تتذكر وصية مَيثم فتوقف هجومها..

ينبغي علينا الرحيل عندما يكون النقاش غير مفيد. كانت تلك إحدى القواعد التي تُطبقها في حياتها..

وكان من دهائها أنها تحرص بالمعاملة الطيبة على كسب مكانة كبيرة في قلوب الآخرين حتى إذا جاء وقت عقاب أحدهم.. يكون مجرد ابتعادها عنه كفيلًا بتدميره

- أنا لم أعد بحاجة إليكِ..

في البداية لم تستوعب تاج الأبعاد المخيفة لتلك العقوبة، فقالت جومانا توضح لها:

- لقد سمح لكِ والدي بدخول القلعة طالما أنني أحتاجك، وأنا الآن أقول لك بأنني لم أعد بحاجة إليك وهذا يعني أن القلعة منذ هذه اللحظة محرم عليكِ دخولها..

تغيرت نبرة صوت تاج كما تتغير فيها نبرة المكابر العاصي بعد أن يكتشف عقوبة خطئه، وحاولت أن تطلب المغفرة بحق صلة القرابة التي بينهما:

- أنا أمك.

لكن جومانا قطعت عليها الطريق:

- منذ هذه اللحظة أنتِ لستِ أمي، وأنا لن أغفر لكِ هذا الخطأ أبدًا.

قالت ذلك ثم اختفت..

شعرت تاج بالحزن الشديد بعد ذهاب ابنتها وجلست إلى جوار القبر - قبر مَيثم - وقالت تحادثه:

- لقد التزمتَ بجانبك من الاتفاق، وأنا سألتزم بجانبي..

والحقيقة هي أن تاج بعد أن شاهدت مَيثم يطأ بقدمه أرض الغابة المظلمة عرفت أن حماية جبّار قد سقطت عنه وأنها باتت تستطيع النيل منه..

وحين عاد مَيثم من الغابة ودخل منزله وجد أمامه امرأة غريبة: امرأة رغم تقدمها في العمر إلا أنها لا تزال تحتفظ بقدر كبير من الجمال يخبرنا بأنها كانت شديدة الفتنة عندما كانت أصغر سنًّا..

أدرك من خلال نظراتها ولغة جسدها أنها جاءت لتؤذيه..

فكر أن يُخرج السكين من تحت ثيابه ويبادرها بالهجوم لكنها قالت كما لتختصر عليه الطريق:

- أبقِ سكينتك مكانها؛ فأنا لا أموت بهذه الطريقة.

- من أنتِ؟

- أنا تاج، وأظن أن ابنتي قد أخبرتك عني من قبل.

- وماذا تريدين؟

قالت له بطريقة مباشرة:

- جئت لأقتلك وهذا أمر لا جدال فيه.

أضافت بينما الرعب يسكنه:

- وسأقتل ابنتك من بعدك .. إلا لو ..

- إلا لو ماذا؟

- إلا لو أنك طلبت من جومانا عدم الثأر لك.

كانت تاج بالطبع تستطيع قتله دون أن تترك دليلًا يقود إليها، ولكنها تعلم أن ابنتها سوف تكشف أمرها بالتأكيد؛ فلا أحد غيرها له مصلحة في قتل مَيثم.

أما هو فقد كان يُدرك أنه ميت لا محالة، فقال:

- سأطلب منها عدم الثأر ولكن بشرط

- أنت لست في موضع يُتيح لك فرض الشروط، لكن قُل شرطك

- ريحانة وحيدة في هذه الحياة

- لا تقل إنكِ تريد مني الاعتناء بها؟

- لا.. ولكني أريد منكِ أن تقومي بنقلها لعائلة والدتها في ممالك التنين.

صمتت فكان صمتها ذاك يعني الموافقة.

قال لها: اتبعيني، سأعطيكِ شيئًا.

قادها إلى غرفته..

وهناك أخرج لها عِقدًا عليه ختم عائلة زوجته..



مده إليها وقال:

- بهذا العقد سوف تتعرف العائلة عليها وتعتني بها.

أخذت من يده العقد، ثم قالت تسأله عن أمر يشغل بالها:

- أتساءل في نفسي عن السبب الذي يدفع ابنتي لأن تُضحي بحياتها لأجلك وأجل ابنتك؟

أجابها بذات الإجابة التي كانت جومانا قد حضرتها لتقولها له حين تلقاه:

- لأن الصداقة شيء يستحق المرء أن يُضحي بحياته لأجله.

- تفاهات البشر كالعادة..

قالت ذلك ثم على حين بغتة طعنته في بطنه بيدها، وقالت قبل أن تغادر وتتركه غارقًا في دمه:

- **إذا التزمت بجانبك من الاتفاق، فسألتزم بجانبي.**

ظهرت جومانا في حُجرتها وبدأت تحطم الأشياء - وكانت تلك طريقتها في التنفيس عن غضبها - واستمرّت في ذلك حتى ما عاد في حُجرتها شيء قابل للتحطيم.

تمددت وسط كومة الحُطام.. وضعت يديها خلف رأسها صانعة منهما وسادة وأخذت تفكر في ما آلت إليه الأمور

أولًا: **لقد تعلقت به وربما كان هذا هو سبب رحيله؛ لذلك قررت عدم التعلّق بشيء مرة أخرى حتى لا يرحل عنها.**

ثانيًا: **هي لم تكن يومًا بتلك القسوة - قسوتها مع والدتها - ولكنها أدركت أن لا أحد يُقيم وزنًا للطيبين، وأنك لتضمن عدم تلقيك مزيدًا من الضربات يجب عليك ألّا تكون طيبًا.**

ثالثًا وأخيرًا فإنها من خلال تأملاتها في مجريات الأمور توصلت إلى هذه النتيجة: **وهي أن الآخرين يفكرون ألف مرة قبل إقدامهم على أمر يخص شخصًا قويًّا، أما الضعفاء فلا أحد يكترث بشأنهم.**

وقالت في نفسها:

- إن الذي لا يتعلم درسًا من اللدغة الأولى، فإنه يستحق أن يُلدغ مرة أخرى.

وبناء على ذلك قررت أنها سوف تطلب من والدها لاحقًا تدريبها على القتال وتحسين قوتها الخاصة.

وفي محاولة للهروب من الواقع حاولت استدعاء النوم.. ولكن وقتًا طويلًا مضى والنوم لم يأتِ.. فغادرت حُجرتها وذهبت للمكان الوحيد الذي قد تجد فيه أمانها..

**

كان جبّار يجلس أمام البحيرة..

البحيرة التي تقع ضمن حدود الغابة المظلمة عندما أحسَّ بخطوات من الخلف تقترب منه .. هو لم يكن بحاجة لأن يلتفت فقد عرف القادم من خلال وقع خطواته ورغم ذلك لم يشأ أن يفوّت فرصة النظر لابنته فالتفت إليها..

وحين رآها وجدها حزينة مثل شمس مطفأة..

كان يعلم جيدًا أنها ما جاءت إليه لتتحدث عن حُزنها، لقد جاءت لتهرب من حُزنها إلى حضنه.. لذلك فإنه فتح لها ذراعيه واستقبلها برحابة صمت..

ففي أوقات الحُزن يفوز الذي يؤوي لا الذي يُكثر في الأسئلة.

قالت بعد لحظات:

- أتذكر كيف كنتَ تُخلدنا إلى النوم أنا وأخي أساطير عندما كنّا صغارًا؟!

- نعم، كنتُ أروي لكما قصة.

- وتذكر تلك الجملة التي كنتَ تقولها لنا في نهاية كل قصة؟!

- أذكرها

وقال مداعبًا وهو يبتسم لها:

- ولكنكِ كبرتِ على قصص ما قبل النوم يا بُنيتي.

- أأستطيع لهذه الليلة فقط أن أعود تلك الطفلة الصغيرة؟

هو يعلم أن غايتها لم تكن الاستماع للقصة بل الاستماع لصوته لأطول فترة ممكنة حتى يهدأ قلبها؛ فلا شيء كصوت الأب يستطيع بعث الأمان في قلب الابنة.

- سأقصُّ عليكِ قصة للنبي سُليمان..

أغمضت عينيها وهيأت خيالها ليكون مسرحًا للأحداث.

قال جبّار مبتدئًا القصة:

- منذ زمن طويل.. طويل جدًّا يا بُنيتي..

١٢

- كان النبي سُليمان ذات يوم يجلس فوق عرشه.. وكان مجلسه محفوفًا بالوزراء وأعيان المملكة، وبينما هم كذلك إذ دخل عليهم رجل غريب الهيئة..

كان الجميع يشاهدون ذلك الرجل لأول مرة، وبالرغم من هذا كان النبي سُليمان يحادثه بطريقة أوحت لهم بأنه كان يحادث صديقًا قديمًا.

لاحقًا وحين غادر الرجل الغريب المجلس نهض أحد الوزراء واقترب من عرش النبي وسأله:

- من يكون ذلك الرجل يا نبي الله؟!

- لماذا تسأل عنه؟

- لأنه كان ينظر إليَّ بطريقة ملأت قلبي خوفًا وجزعًا، فمن يكون بالله عليك؟!

أجابه النبي:

- **هذا ملاك الموت، وقد جاء متجسدًا بهيئة رجل.**

تعاظم الخوف في قلب الوزير خصوصًا لأن " ملاك الموت " كان يُطيل النظر إليه ولم يكن ينظر لأحد من الحاضرين غيره؛ فقال الوزير مذعورًا:

- أسألك الله يا نبي الله أن تأمر الرياح فتنقلني لبلاد الهند.

كانت المسافة بين مملكة سُليمان وبلاد الهند بعيدة، ويحتاج فيها المسافر شهورًا طويلة حتى يصلها؛ وهذا ما دفع الوزير لأن يختار اللجوء إليها.

كان النبي يُدرك أن الحذر لا يُنجي من القدر؛ لذلك نصحه بعدم الهروب:

- لو شاء الله أن يقبض روحك فلن يُفيدك الفرار.

لم يُصغِ الوزير للنصيحة وألحّ في طلبه وتوسل حتى لبى النبي سُليمان طلبه، وأمر الرياح بحمله إلى بلاد الهند.

**

في اليوم التالي عاد الرجل الغريب " ملاك الموت " لزيارة النبي في مجلسه، فسأله النبي لما رآه:

- لقد أفزعت وزيرنا بنظراتك له البارحة، فلماذا كنت تنظر إليه بتلك الطريقة؟!

أجاب ملاك الموت:

- لأني كنت قد أُمرت بقبض روحه بعد ساعة زمان في أرض بعيدة عن أرضك يا نبي الله، وتعجبت لما رأيته كان جالسًا بمجلسك آنذاك.

- في أي أرض كنت قد أُمرت بقبض روحه؟

- في بلاد الهند.

- وماذا صنعت؟!

- ذهبتُ في الساعة التي أُمرت فيها، فوجدت وزيرك هناك ينتظرني فقبضت روحه.

**

في الحقيقة لم يختر جبّار تلك القصة عبثًا.

بل اختارها كي يُفهم ابنته من خلالها أن الموت كان مكتوبًا على صديقهاذاك ؛ **ولأجل هذا مات** ولو أن الرب أراد له الحياة لما كانت تاج أو أحد غيرها يستطيع قتله..

هو يُدرك أن هذا المفهوم - المستفاد من القصة - لن يمحو الحزن الجاثم في قاع قلبها، ولكنه نوع من العزاء قد يُخفف عنها الأمر قليلًا..

حين انتهت القصة قال لها والدها جبّار الجُملة التي اعتاد أن يقولها في الختام:

- تذكري طوال عمركِ يا بُنيتي أن الرب يُجيب دعوة الداعي إذا دعاه.

- أي دعوة يا أبي؟!

- نعم أي دعوة.

**

واستمر والدها تلك الليلة في رواية القصص عليها، حتى غفت في حضنه.

بعد ذلك فعل جبّار أمرًا في غاية الغرابة:

فبعد أن نامت ابنته قرأ عليها طُلسمًا ما جعلها تغرق في حالة سُبات عميقة.. عميقة لدرجة أن طبلًا لو قُرع عند أُذنها تلك اللحظة لما كانت ستشعر به..

ثم قال يُخاطب صاحبة العيون التي كانت طوال الوقت تُراقبهما من بين أشجار الغابة:

- اقتربي لقد حان الوقت..

١٣

من بين أشجار الغابة المظلمة ظهرت كوبرا أفعى الجن تارا والتي كان لها لون أشد سوادًا من عتمة الليل.. زحفت أرضًا على جسدها الضخم حتى وصلت إليه:

- أأنت متأكد يا سيدي؟!

- لقد كنا سوف نخسرها اليوم يا تارا.. ماذا بظنّك كان سيحدث لها لو أنني وصلت متأخرًا لجبال السعالي؟!

في الحقيقة لم تكن جومانا هي من قضت على قبيلة السعالي بصيحتها، بل كان جبّار من فعل.. ثم لكي لا يُشعرها بالضعف وقِلة الحيلة فإنه جعلها تعتقد أنها من قامت بذلك..

قالت تارا:

- ولكن ما تطلبه يا سيدي يُعد محرمًا في كل قوانين الأرض وشرائع السماء، وعقوبته النفي المؤبد..

- أعلم.. ولأجل هذا فإن ما سيحدث هنا بعد قليل يجب أن يظلّ سرًّا بيننا للأبد..

لم تقتنع كوبرا أفعى الجن بذلك الأمر ولكنها حنت رأسها دلالة على الطاعة.

قال يأمرها:

- ابدئي عملك.

١٤

اقتربت تارا من جسد جومانا الممدد أرضًا - وبالتحديد - من عند أُذنها اليُسرى وقرأت عليها ما يسمى بـ **نصف تعويذة البرزخ** فارتعش جسدها لتلك التعويذة وانتفض وكأن زلزالًا هاج في أعماقها.

واصلت تلاوة التعويذة عليها مرارًا وتكرارًا حتى هدأ جسدها وعاد لسكونه الأول.

أخرجت تارا بعد ذلك لسانها الأسود المتشعب وتحسست به الجسد الخامد أمامها وحين تأكدت مما كانت تريد التأكد منه فإنها قالت تحادث سيدها:

- لقد غادرت الروح جسدها، إنها الآن شبه ميتة.

- انتقلي للمرحلة التالية.

- ما زال بإمكاننا التراجع يا سيدي.

اكتست عينا جبّار باللون الأحمر الغاضب واختفى من مكانه بأسرع مما كانت تارا تستطيع أن تتخيل، وحين عاود الظهور - بعد أقل من جزء من الثانية - كان يُطبق على عُنقها بقوة باتت معها لا تستطيع أخذ أنفاسها وقال لها:

- أنا أُدرك خطورة الأمر ولا داعي لتذكيري كل لحظة.. هذه ليست المرة الأولى وربما لن تكون الأخيرة - ثم صرخ عليها:

- لقد جلبتكِ من براكين " **سَقر** " لتحرسي هذه الغابة، وتُطيعي أوامري وأنا آمركِ الآن بأن تنفذي ما أخبرتكِ به، فنفذيه يا تارا إن كنتِ لا تريدين أن أنتزع منكِ كل الأرواح التي بداخلك..

لم تستطع كوبرا أفعى الجن أن تُجيب فقد كانت عنقها في قبضة جبّار، ولكنها أومأت برأسها إيماءة المعتذر الخاضع، فأفلت جبّار عنقها من قبضته وقال:

- انتقلي للمرحلة التالية.

قامت تارا بلف جسدها الضخم ذي الحراشف الخشنة حول جومانا النصف ميتة ثم فجأة:

قامت بابتلاعها.

ثم انطلقت تزحف نحو البحيرة بكل سرعتها وغطست فيها - بينما جومانا لا تزال في جوفها - وواصلت غوصها نحو الأسفل حتى وصلت إلى القاع واستقرّت فيه.

ومكثت هناك طويلًا تقرأ التعاويذ والطلاسم وتكمل بقية الطقوس، بينما جبّار في الأعلى يحرس المكان حتى لا يأتي أحد ويكتشف الحقيقة.

بعد ساعة من ذلك وحين انتهت تارا من عملها عادت إلى السطح، وأخرجت جومانا من جوفها..

سألها جبّار: هل انتهى الأمر على ما يرام؟!

- نعم يا سيدي.

- ومتى ستفيق من سُباتها ؟!

- جسدها مُرهق، ولكنها ستكون بخير عند الصباح.

- هل ستشعر بشيء مختلف عندما تفيق؟!

- لا، لن تشعر بشيء.

- لا أريدها أن تعرف عن هذا الأمر إلا عند الضرورة القصوى..

- أمرك سيدي.

حملها جبّار بين ذراعيه واتجه بها عائدًا نحو القلعة..



ولم يدرِ في باله ولا بال كوبرا أفعى الجن تارا أن هناك شخصًا كان يسترق النظر إليهما من بين أشجار الغابة وأنه شاهد كل ماحدث.

الباب الثالث

١

وبعد ثلاثة أعوام

استيقظ شعب أبابيل ذلك النهار وقد بدؤوا بالاستعداد للخطر القادم بعد أيام قليلة: " **دفع الإتاوة لمنظمة الجاثوم** " وكان ذلك الأمر يحدث عند بداية كل عام جديد..

حيث تقوم القرى بالدفع لتلك المنظمة تجنبًا للوقوع في المشاكل معها، يدفعون الكثير من المال بالإضافة لأطنان مما تُخرجه الأرض من خيراتها كالقمح والثمار.

ولكن قرية الجسَّاسة ذلك العام لم تستطع تأمين الإتاوة المفروضة عليها؛ ولأجل هذا اجتمع الأعيان بقيادة شيخهم " **همام** " للتوصل لحل لتلك الكارثة.

ولأنهم كانوا بصدد مناقشة أمر قد يُحدد للقرية الفناء أو البقاء؛ فإن همام قرر السماح لجميع أفراد القرية بالمشاركة في اتخاذ القرار.

قال الشيخ مبتدئًا الكلام:

- لقد كان عامًا أعجف هذا الذي مررنا به؛ لم تُمطرنا السماء وماتت أكثر مواشينا، ولم تُنبت لنا الأرض إلا ما ندفع به شبح الجوع عنا.

وأضاف بنبرة خائفة:

- الجاثوم قادمون للجسَّاسة

واستطاع وهو يقولها أن يلمح الجزع في العيون التي تنظر إليه، أكمل يقول:

- وحين يصل أفرادها إلينا ولا يجدون الإتاوة في انتظارهم فإنهم سيجعلوننا نتمنى لو أننا كنا قد مُتنا من العطش والجوع.

صاح شاب مندفع:

- نقاتلهم، فإما أبدناهم وإما دفعنا أرواحنا إتاوة لهم.

تحمس بقيّة الشباب لذلك الرأي وأيدوه بهُتافاتهم، ولكن أحد الأعيان وكان اسمه " **شاليش** " قال محذرًا:

- عدونا مسربلٌ بالحديد والعتاد، ونحن لسنا إلا رجالًا عُزّل - ثم وهو يرفع ذراعيه الهزيلتين:

- ولا نملك لهم سلاحًا إلا هذه العظام الجائعة.

لم يقتنع الشباب بما سمعوه وأصروا على خيار المواجهة؛ مما اضطر شاليش أن يُصارحهم بالحقيقة المخيفة:

- لا تزالون صغارًا وتعتقدون أن الحرب شيء يُمكن اللعب معه، ألم تسألوا أنفسكم عن المصير الذي سوف يلحق بعوائلكم بعد أن تموتوا ؟!

لم يعطهم فرصة للتفكير وأجاب بنفسه:

- سوف تُسبى نساؤكم، وسيُباع أطفالكم في أسواق النخاسة ليعملوا إما عبيدًا عندما يكبرون وإما أجسادًا للتسلية في منازل البغاء والمتعة!!

وبينما الجميع يُصغون إليه، صاح عليهم:

- وجُثثكم؟!.. جُثثكم ستملأ طرقات القرية ولن تجد لها من يدفنها تحت الثرى وستغدو مع الوقت وليمة دسمة للغربان والضباع الجائعة.

**

استمر الاجتماع طويلًا ذلك النهار وفي نهايته كان أفراد القرية قد انقسموا لفريقين: الفريق الأول يرجح خيار السِلم، بينما الثاني يرجح خيار الحرب.

لذلك كان على الشيخ همام أن يفصل الأمر بينهم:

- نُرسل وفدًا إلى الملك نطلب منه المساعدة؛ فإذا وافق كان السلام وإذا امتنع فإنها الحرب.

٢

كان قصر الملك " **طاغين** " يقع في جزيرة اسمها الأرباب..

وقد قام طاغين ولدواعٍ أمنية بإغلاق جميع الموانئ المطلّة على الجزيرة وأعلن أن من سوف يبحر نحوها - كائنًا من كان - فإنه سوف يكون هدفًا لجنوده..

لذلك كان على الشيخ همام والأعيان الذهاب لقرية الساحرات أولًا فهي الميناء الوحيد الذي تستطيع القوارب من خلاله الإبحار بسلام إلى الجزيرة..

**

وما أن وطئت أقدام الأعيان قرية الساحرات حتى اتجهوا إلى منزل عميدة القرية وكانت امرأة عجوز قبيحة الوجه اسمها " **شواهر** " وقد بادرتهم بأن قالت:

- هناك شرط عليكم تحقيقه، قبل أن نستمع لطلبكم.

ثم أشارت نحو فتاة شابة كانت تقف بالقرب منهم وقالت:

- هذه البهكنة الجميلة.

سأل الشيخ همام الذي لم يتوقع الطلب الغريب القادم:

- ما بها؟

- نريد شريكًا لها لهذه الليلة.

- لم نأتِ لهذا، ونحن في عجلة من أمرنا يا شواهر.

ولكن شواهر قالت وكأنها لم تستمع لكلامه:

- وسيكون شريكها هو أنت يا شيخ الجسَّاسة، فإذا قلت لا.. فخذ رجالك وارحلوا من هنا.

**

تبادل أعضاء الوفد فيما بينهم نظرات الحيرة والعجب، بينما نهض الشيخ همام مُعلنًا موافقته على تنفيذ الشرط.. وقبل أن يدخل إلى الكوخ الذي كان من المقدر أن يلتقي فيه مع الفتاة، قالت له عميدة قرية الساحرات تحذره:

- ابذل جهدك أيها الشيخ؛ فبعد تسعة أشهر من هذه الليلة إن لم تضع الفتاة مولودها فإنها سوف تُقتل.

كان الوضع حرجًا للغاية داخل الكوخ ولم يدرِ الشيخ كيف يفعل ليتجاوز ذلك الموقف السخيف الذي وجد نفسه فيه.. كانت الفتاة واقفة عند الباب تنتظر الأوامر.

التفت إليها الشيخ وتأملها: كانت حسناء كاملة الأوصاف، ولكنه لمح في عينيها خوفًا يشابه خوف دجاجة تحدق في سكين الجزار وتعلم أن نهايتها ستكون على حد سكينته..

قال:

- لا تخافي أيتها الفتاة تعالي.. تعالي واجلسي هنا.

تقدمت الفتاة وجلست على طرف السرير، حيث أمرها الشيخ أن تجلس

- ما اسمكِ يا بُنية؟!

- فـ .. فيـ .. فيروز يا سيدي الشيخ.

- أأحضر لكِ بعض الماء يا فيروز؟

أحست الفتاة بطيبة قلبه فقالت متوسلة راجية:

- أرجوك يا سيدي أنقذني من هؤلاء الساحرات القذرات.

- كلامك يدل أنك لستِ من سكان هذا المكان.. ألستِ بساحرة مثلهن؟

- لا؛ فالساحرات في هذه القرية أبكار ولا يتزوجن.

- وكيف يتكاثرن؟

- إنهن يقمن بأسر الفتيات مثلي ثم يقمن برميهن في أحضان الرجال العابرين مثلك يا سيدي، وبعد تسعة أشهر يأخذن منها المولود إن كان أنثى..

- وإن كان ذكرًا ؟!

– إن كان ذكرًا يقمن بوأده – ثم أضافت تخبره: أما الأم فإنهم يقتلونها أو يعيدون تقديمها للرجال العابرين.. ولا يطلقن سراحها إلا إذا أنجبت لهن مولودة أنثى..

– وماذا يفعلن بالمولودة؟

– يتبنينها لتصبح ساحرة مثلهن عندما تكبر.

تأمل الشيخ عينيها لبعض الوقت، عينيها اللتين كانتا تعكسان بوضوح لهب الشموع الذي يُضيء داخل الكوخ، قال وقد اكتشف فيهما أمرًا:

– أرى في عينيكِ حُبًّا.

– لا يعرف الحُب إلا أهله.. وطالما أنك رأيت ما في عيني.. فبحق الرب لا تمسسني؛ فإنني له.

– وأين هذا الذي تحبينه؟!

– لا أعلم، ولكني إن خرجت من هذا المكان سأعرف كيف أعثر عليه.

تأمل الشيخ همام قليلًا حال تلك الفتاة وقد أشفق عليها:

– أتقبل الساحرة شواهر أن أفتديكِ بالمال يا بُنية؟

– أحقًّا تفعل يا سيدي؟

– نعم؛ فأنا شيخ قرية الجسَّاسة وأملك الكثير من الأموال.

فالحقيقة هو لم يكن يملك غير ثلاث قطع ذهبية كان قد استدانها من شيوخ القرى المجاورة، وقرر ألَّا يستخدمها إلا عند الحاجة القصوى وقد كذب عليها حتى لا يُشعرها بالخجل:

- اتبعيني.

**

خرج همام من الكوخ وخلفه فيروز.. فما أن رأتهما عميدة قرية الساحرات حتى أدركت أن لا شيء وقع بينهما، فتملكها غضب شديد وصاحت:

- ألا تعرف كيف تُنجز مهمتك أيها الشيخ؟!

مدّ لها همام صُرة قماش صغيرة وقال:

- هذا ثمن الفتاة.

نظرت شواهر لما بداخل الصُرة ثم سألت:

- لماذا تريد افتداءها؟

- ما لكِ ولهذا؟ .. ألا يكفيك الثمن الذي بيدك؟

- لستُ تاجرة نساء يا شيخ الجسَّاسة، فإما أن تعطيني سببًا أقتنع به وإلا فخذ مالك وارحل مع رجالك من هنا.

لقد بلغ همام عامه السبعين ورغم ذلك لم يتزوج بعد.. وكان لعزوفه عن الزواج قصة قديمة.. قصة جاهد كثيراً ليدفنها في مقابر الذاكرة وقد أقسم ألّا يخبر بها أحدًا علّه يساعد نفسه على نسيانها..

ولكنه مع مرور السنوات تعلم أن البشر لا يملكون ترف نسيان قصص الحب المنتهية، وأن كل ما يستطيعون فعله فقط هو التعايش مع حقيقة انتهائها.

حتى أنه قال ذات مرة يحادث نفسه:

"كل من يدعي النسيان إما كاذب، وإما أنه ما جرب الحب قط"

**

قالت شواهر قاطعة عليه تأملاته:

- إننا ننتظرك

- إنها قصة قديمة يا شواهر.

- احكها لنا إذا كنت تريد افتداء الفتاة..

صحيح أنه كان قد أقسم على كتمان القصة.. ولكن إن كان في البوح بها مساعدة لتلك الفتاة فإنه سوف ينكث بقسمه لأجلها..

قال:

- فيما مضى كان والدي الملقب بـ "**شاهين ابن السماء**" هو شيخ قرية الجسَّاسة.. وكان لدينا راعٍ للماشية اسمه **نوح** وقد كانت لديه فتاة في مثل عمري..

٣

لم يُرزق الشيخ شاهين ابن السماء إلا ابنًا واحدًا هو همام؛ لذلك كان يخاف عليه كثيرًا ويمنعه الخروج فلم يكن لدى الصغير همام حينها إلا أن يلهو ويلعب مع سكان المنزل..

وكان للراعي نوح فتاة في مثل عمر همام تقريبًا وكانت خليلته في اللعب والضحك والسمر.. فكان من الطبيعي أن ينشأ بينهما حُب وتعلّق طفولي..

ومع الوقت كبر ذلك الحُب في قلب كل واحد منهما..

وحين بلغ همام مبلغ الرجال ذهب لوالده يُفاتحه بالأمر – أمر الزواج من ابنة الراعي – ولكن شاهين ابن السماء رفض طلب ابنه وقال له بنبرة صوت لا تقبل النقاش:

– أبناء السادة لبنات السادة، وابنة الراعي تلك لتبحث لها عن تيس يتزوجها.

وفي اليوم التالي - ولأجل حماية ابنه - قام الشيخ شاهين بطرد الراعي نوح وابنته.. لم يطردهما من المنزل فقط بل ومن القرية كلها وقال لهما متوعدًا:

- الموت سيكون مصيركما لو عاد أحد منكما للجسَّاسة.

دخل همام في مرحلة حزن شديدة؛ فهو لم يكن يحب تلك الفتاة فقط بل كان قد اعتاد عليها، وكان من الصعب عليه التعايش مع موضوع غيابها..

فبحث عنها وسأل حتى عثر عليها في إحدى القرى المجاورة.

كان لقاؤه بها مُبهجًا لقلبه حتى أنه عند اللقاء لم يجد الكلمات التي تُعبر عن مدى فرحته وبات مثل أبكم يحاول أن يُلقي شعرًا في حبيبته العائدة من براثن الغياب..

وأول ما قاله لها هو:

- لنهرب

- لا يا همام، لن أجلب العار لأبي.

- لن تجلبي له العار؛ فنحن سنهرب لنتزوج.

- لماذا نهرب إذًا؟

- لأن والدي سيعترض طريق زواجنا كما تعلمين.

- وأبي أتركه لمن؟.. إنه بحاجة لخدمتي واعتنائي به.

- والدك سيعرف كيف يتدبر شؤونه - وأضاف قائلًا:

- وافقي أرجوكِ فلا أحد فينا يصلح للبقاء حيًّا دون الآخر.

مكثت صامتة لبعض الوقت، فقال يحثها على الكلام:

- أريد جوابًا.

بدت ابنة الراعي مترددة؛ إنها حائرة بين حُبها له وبين واجباتها كابنة وحيدة لوالدها المتقدم في العمر.

أما همام فكان يرى الموضوع من وجهة نظر واحدة - الهرب ولا شيء غيره - ولكنه في ذات الوقت لم يشأ أن يجبرها عليه.. كان يريدها أن تقرر بنفسها:

- سأنتظركِ ليلة الغد عند البئر القريبة من قريتنا، فإذا أتيتِ هربنا.. وإذا لم تأتِي فهذا فراق بيني وبينكِ.

في ليلة الغد ذهب همام إلى البئر وانتظرها هناك..

ولكن وقتًا طويلًا مضى وفتاته لم تأتِ..

وعند كل مرة كان اليأس يتسلل فيها إليه ويهم بالرجوع، كان قلبه يقول:

- ابقَ، فربما تجيء ولا تلقاك.

ومكث لـ ثلاث ليالٍ ينتظرها لكنها لم تأتِ، فعاد لمنزله وقد عرف الجواب..

عاش بعد ذلك سنين طويلة..

عاش فيها مخذولًا يكرهها ويكره بسببها كل النساء.

تمضي شهور وسنين ويموت الشيخ شاهين ابن السماء ويصبح همام شيخ الجسَّاسة من بعده.. ثم تمضي شهور أخرى وأعوام ويشاء الرب ذات يوم أن يلتقي همام في أحد أسفاره بشخص ما..

شخص كأنه يعرفه..

فاقترب همام من ذلك الشخص وسأله:

- أنت الراعي نوح، أليس كذلك؟

كان الراعي قد أُصيب بالعمى جرّاء تقدمه في السن، ورغم ذلك رد قائلًا:

- وأنت همام، لقد ميّزتك من صوتك.

**

دار بينهما حديث عابر..

وكان همام يوَدُّ أثناء الحديث أن يسأله عن ابنته، ليس اشتياقًا لها.

إنما كان يشده الفضول لمعرفة ما آلت إليه أمورها، فكل رجل ومهما طال به الوقت إلا أنه يُحب دائمًا أن يعرف مصير الفتاة التي ارتبط قلبه بها يومًا..

لكن كبرياءه كان يمنعه من السؤال عنها.

أدرك الراعي نوح بفطنته ذلك الصراع الذي يدور داخل قلب همام، فقال له:

- لم تخذلك يا همام، لكن طارئًا منعها من الوصول إليك..

ثم قال الراعي يشرح له ما حدث:

- لقد عادت ابنتي ذلك اليوم سعيدة لأنك عثرت عليها بعد أن قام والدك بطردنا من القرية.. واستأذنتني في الرحيل معك.. قالت إنك وعدتها بالزواج.

دمعت عينا الراعي وهو يتذكر أحداث ذلك اليوم:

- كانت تكاد تطير من الفرح يا همام فلم أستطع منعها من قضاء بقية حياتها مع الرجل الذي اختاره قلبها.

- وماذا حدث؟

في ذلك اليوم وبينما كانت ابنة الراعي في طريقها ليلًا للبئر حيث ينتظرها همام إذ اعترض الشيخ شاهين ابن السماء طريقها وقام بقتلها، ثم لكي يُداري فعلته تلك ويضمن عدم معرفة ابنه بالأمر فإنه قام بدفن الجثة وموارتها بعيدًا عن الأنظار وأرسل غلمانه لقتل الراعي.

ولكن أولئك الغلمان كانوا أصدقاء الراعي نوح - بحكم أنهم كانوا يعملون معه في ذات المنزل - فأخبروه بحقيقة ما حدث لابنته ونصحوه أن يهرب بعيدًا.

أخذ الراعي بنصيحتهم وهرب..

فعاد الغلمان لسيدهم الشيخ وقالوا بأنهم لم يجدوا للراعي أثرًا..

بعد أن عرف همام الحقيقة أقسم ألّا يتزوج أبد الدهر.. ومنذ ذلك الوقت وهو يُساعد كل عاشقة يُصادفها في حياته كما لو أنه يرى صورة فتاته تلك في ملامح كل فتاة يلتقيها..

**

حين انتهى همام من سرده القصة، أعادت له عميدة قرية الساحرات ماله وقالت:

- أنتم العشاق مساكين، يظل الحب يقتلكم وتظلون له مخلصين..

ثم التفتت نحو فيروز وقالت لها:

- منذ هذه اللحظة أنتِ مِلك لهذا الشيخ، فافعلي ما يأمركِ به.

حين أصبحت فيروز مِلكًا للشيخ همام فإن أول ما فعله معها هو أن حررها من العبودية وقال:

- ابحثي عمن ينتظركِ - وأضاف: ولي عندكِ طلب يا بُنية.

- طلبك مجاب أيها الشيخ، اطلب.

- إذا رُزقتِ يومًا بمولودة أنثى أريدكِ أن تطلقي عليها اسم تلك الفتاة التي كنت أُحب.

- وماذا كان اسمها يا سيدي الشيخ؟

- كان اسمها سرابي.

ابتسمت فيروز وقالت تقطع له وعدًا قبل أن ترحل:

- إذا رُزقت يومًا بفتاة، فسيكون اسمها سرابي..

**

وبعد أن ذهبت فيروز في حال سبيلها وغادرت قرية الساحرات، قالت شواهر للشيخ همام:

- الآن تستطيع أن تخبرنا عن طلبك، ما هو الأمر الذي تريدون مقابلة جلالة الملك طاغين من أجله؟

٤

صعد أعيان قرية الجسّاسة بقيادة الشيخ همام على متن قارب خشبي أعطته إياهم عميدة قرية الساحرات.. كانوا سعيدين بذهابهم إلى جزيرة الأرباب لمقابلة الملك..

وما كانوا يعرفون المصيبة التي كانت تنتظرهم هناك.



لاحقًا وحين أصبح أعيان القرية يقفون بين يدي الملك طاغين فإنهم ركعوا له احترامًا وتقديرًا، وبقوا له خاشعين حتى هتف الحاجب عليهم قائلًا:

- تستطيعون النظر إلى وجه جلالته.

رفع الجميع رؤوسهم ينظرون نحوه بإجلال وإكبار.

طلب الشيخ همام الإذن بالحديث وعندما سُمح له قال:

- أيها الملك العظيم أنت تعرف الضائقة التي تمر بها البلاد وتعـ ..

قاطعه طاغين:

- لمَ لا توفر على نفسك عناء المقدمات أيها الشيخ.

- منظمة الجاثوم جلالتك.

- ما بها؟

- إنها تضعنا كل بداية عام جديد أمام خيارين.. إما الموت بحد سيوفهم وإما الموت بحد الفقر والجوع والعطش.. أصبحنا يا مولاي نعمل طوال العام من أجل تأمين الإتاوة لهم، وهذا الأمر لو استمر طويلًا فإنه سيؤدي بنا إلى الفناء.

كان الملك طاغين ذو العيون الزرقاء الناعسة والوجه الوسيم.. يطيب له الجلوس فوق عرشه ومراقبة مواطني مملكته وهم يقفون أمامه ويشتكون من سوء حال حياتهم.. كان يجد متعة كبيرة في تأمل أشكالهم الضعيفة والهزيلة وكأنه بذلك يشعر أنه أقوى:

- أنتم تعلمون بأن حراسنا منذ فترة طويلة وهم يحاولون الإطاحة بالجاثوم، غير أنهم لم يتمكنوا من ذلك بعد.. ولكنني أريد منك أن تعود لأهالي قريتك وتخبرهم بأننا سنبذل في الأيام القادمة مزيدًا من الجهد للإطاحة بهم..

تجرأ الشيخ واقترب من العرش خطوتين وقال بطريقة ودّية:

- لو أنك تأمر ساحراتك لاستطعن الإمساك بهم.

بدأ الغضب يتسلل لقلب طاغين، لقد تجاوز ذلك الشيخ حدوده وبدأ يتدخل في شؤون لا تعنيه، ورغم هذا رد طاغين عليه بهدوء مفتعل:

- إن الساحرات أيها الشيخ مسخرات لخدمتي أنا وحدي.

- ولكن يا مولاي ما يضر شعبك يضرك.

وثب طاغين من فوق عرشه:

- لا تشبهني بأحد، أنا الرب يا همام!!

انكمش الشيخ على نفسه والتزم الصمت.. هو لا يشعر بالخوف من أن يبطش به طاغين..

فقد عاش طويلًا ولم تعد فكرة الحياة تغريه مثل السابق.. كل ما كان يخشاه هو أن يقرر الملك عدم مساعدة أهالي قريته فتأتي منظمة الجاثوم بعد أيام ولا تجد معهم الإتاوة

قال متوسلًا لأجل قريته:

- أرجوك ساعدنا!!

- فلتساعدوا أنفسكم بأنفسكم

- كيف وقد منعت عنا السلاح؟!

- هذا ليس من شأني!!

- أنت المسؤول عن حماية شعبك.. أنت الملك!!

رد طاغين وقد اشتد به الغضب وكشف عما يعتقده بنفسه:

- بل أنا الرب الذي يتولى رعايتكم وأنا حُر فيما أفعل!!

وبعد أن أدرك همام أن لا فائدة تُرجى من الحديث معه قال:

- كلانا يعرف أنك لست الرب.

حذره طاغين:

- استغفرني يا همام - وأضاف رافعًا صوته:

- أنا ربكم الأوحد!!

- أنت لستَ إلا كومة من البراز.

قال همام ذلك ثم استدار منصرفًا.

استحكم الغضب في قلب طاغين بسبب الإهانة التي تلقاها من الشيخ وقرر أن يرد عليه الصفعة بأخرى أشد منها فأمر حراسه قائلًا:

- ألقوا القبض عليه وعلى أعيان قريته، وأعدموهم.

**

في الساحة الخارجية الفسيحة الممتدة أمام القصر قام الجلاد بقص رؤوس أعيان قرية الجسَّاسة واحدًا واحدًا، وعندما جاء الدور على همام فإن طاغين اقترب منه وقال له شيئًا في أذنه، ثم التفت إلى الجلاد وأمره بقص رأسه.

تدحرج رأس همام أرضًا وقد بدت ملامح وجهه الميتة وكأنها مصابة بالذهول بسبب ذلك السر الذي استمع إليه..

لقد همس له طاغين قائلًا:

- أنا لا أستطيع الوقوف ضد الجاثوم يا همام.. ليس لأن حرس مملكة أبابيل لم يتمكنوا من الإمساك بهم مثلما أخبرتك سابقًا.. بل لأنني أنا وناب الفيل شخص واحد.. **أنا هو رئيس منظمة الجاثوم.**

**

في اليوم التالي خاف طاغين من أن تثور عليه الجسَّاسة بعد أن تصل إليهم أخبار ما فعله بأعيان قريتهم؛ ولأجل هذا فإنه أمر باستدعاء اثنين من أشد قادات منظمة الجاثوم رعبًا وبطشًا " **بحر وأيوب** "



داخل حانة تقع في مكان بعيد.

كان هناك شاب في أواخر العشرين من عمره..

يجلس فوق مقعد إلى جوار منضدة تقديم النبيذ، كان نحيلًا طويل القامة وله ملامح وجه حادة وقاسية كما لو أنه استعارها من نسر كان ذلك الشاب اسمه " **بحر** "

ومقابلًا له يجلس شاب آخر أسود البشرة..

بدا يصغره بقرابة العامين أو الثلاثة أعوام، كان يفوقه طولًا وعرضًا وله جسد مترع بالعضلات، ورغم شراسته ومَهابته إلا أنه يبدو مثل غول وسيم كان ذلك الشاب اسم " **أيوب** "



كانا هناك منذ أكثر من ثلاث ساعات..

وكانا طوال هذه المدة يشربان النبيذ في صمت وتأمل، وكلما انتهى كأس أحدهما جاءت ساقية الحانة البدينة وملأت فيه النبيذ.

كان المكان هادئًا..

لم يكن الهدوء سببه عدم وجود أحد بل لأن بحر وأيوب قاما بقتل كل زبائن الحانة، لم يفعلا ذلك لأن ثمّة من تجرأ على أذيتهما بل فعلا ذلك بدافع التسلية فقط.

امتد صمتهما لساعة أخرى حتى تنهد بحر وقال:

- لقد مللت

- تريد أن نتسلى بقتل الساقية؟

شهقت الساقية..

- لا؛ فمن سيعكف على خدمتنا إذا قتلناها.

- ما بك إذًا؟

- ما الفائدة من مواصلة هذه الحياة إن كنا سنموت في آخرها؟

- معك حق، أتريد أن تموت؟

- لا، ولكني أفكر بالأمر بطريقة جادة

- أخبرني قبل أن تفعلها

- لماذا؟

- كي أرافقك، فالحياة بدونك ستكون سخيفة.

صمتا لبعض الوقت وأكملا احتساء النبيذ.. كان السُّكر يسيطر عليهما..

قال أيوب بعد قليل وكأنه انتبه لشيء:

- تبًا .. أنا وأنت سوف ندخل الجحيم من أوسع أبوابه.

- هذا أفضل؛ فكل أصدقائنا هناك.. سنشعر بالملل لو دخلنا الجنة.

استغرقا في نوبة ضحك شديدة حتى سقط أيوب بالكرسي على ظهره، فأثار بسقوطه موجة من الغبار..

قال أيوب الواقع أرضًا وقد جعله السُّكر يعتقد أن صديقه من وقع:

- هل تأذيت؟

- أنا لا .. ولكن اسأل الأرض فربما آذيتها بسقوطك عليها..

ابتسم أيوب وقد انتبه إلى أنه هو الذي وقع أرضًا، وقال:

- بحر انزل إليَّ أريد أن أحادثك.

- لِمَ لا تصعد أنت؟

- نزولك أسهل

- معك حق

قال ذلك ثم دفع بنفسه إلى الوراء وسقط مع كرسيه أرضًا فأصبح مقابلًا

ه:

- أخبرني ماذا لديك؟

كان هناك شيء يدور منذ فترة في رأس أيوب؛ شيء كان قد قرر ن يكتمه حتى عن أقرب الناس إليه ولكن الخمرة الآن كانت تدفع ذلك كلام للخارج:

- ماذا سيحدث لنا بعد الموت؟

- لا أعلم، فلا أعرف أحدًا مات وعاد ليخبرنا.

- والرب؟

- ما به

- هل تؤمن بالرب، والجحيم والجنة كما يقول الرهبان؟

خفض بحر صوته وهو يقول الجملة التالية:

- أومن أن الرب ليس طاغين.

ثم ضحك بصوت عالٍ..

ولكنه بعد لحظات اكتشف أنه كان يضحك وحده:

- ما بك لا تضحك، أأطلب لك بعض النبيذ؟

- أنا جاد فيما أقوله يا بحر - وعاد يُكرر السؤال:

- هل تؤمن بأن هناك ربًّا؟

- قلت لك لا أعرف.

وامتدت بينهما بعض لحظات الصمت، قطعها أيوب بأن قال كاشفًا بصراحة عما بنفسه:

- أريد أن أُقلع عن العمل مع الجاثوم

كان يتوقع أن يرصد أمائر الدهشة مرسومة على ملامح وجه صديقه، لكن بحر سأل بهدوء:

- لماذا؟

- أريد أن ألتقي بوالدتي
- ولكنها ميتة.
- كل الأمهات يدخلن الجنة، وأريد أن ألقاها هناك..
- هذا يعني أنك تؤمن بما يقوله الرهبان.
- أومن بأن هناك من أوجدنا على هذه الأرض، وأنه سوف يلاقينا بعد موتنا ويسألنا عما فعلناه.. وأن الذي يعمل خيراً يدخل الجنة والآخرين يذهبون للمكان الذي فيه أصدقاؤنا..

صمت بحر ولم يُعلِّق، فسأله أيوب:

- أليس لديك ما تعتقده فيما يتعلق ببعد الموت؟
- أومن أن الدود سيفرح بك كثيراً عندما تموت أيها الضخم كثير اللحم..

ضحك بحر وشاركه أيوب هذه المرة.. وحين توقفا عن الضحك سأله أيوب:

- ألا تريد أن تُقلع عن العمل مع المنظمة؟

قطع حديثهما ذاك دخول شخص للحانة - كان الداخل هو الرسول الذي أرسله طاغين - وقد تعجب لرؤية القائدين ممددين على الأرض بتلك الطريقة، لكنه أخفى اندهاشه وقال يخبرهما عن الأمر الذي جاء لأجله:

- ناب الفيل يطلب رؤيتكما حالاً..

سأله بحر:

- لماذا يطلب رؤيتنا في هذا الليل، ماذا حدث؟

أخبرهما الرسول بكل ما حدث منذ لحظة وصول أعيان الجسّاسة والى ساعة قطع رؤوسهم..

همس بحر في أُذن صديقه:

- دعنا الآن نذهب لرؤيته، وسأجيبك عن سؤالك لاحقًا.

بعد أن غادر الثلاثة المكان قامت ساقية الحانة البدينة بترك عملها وركضت نحو قريتها - الجسّاسة - لتخبرهم بما سمعت.

**

قرر طاغين - ولكي يُخمد احتمال قيام أي ثورة قد يشنها عليه رجال الجسّاسة في المستقبل - أن يقوم بتجهيز سَرية من فرسان منظمة الجاثوم قوامها ثلاث مئة مقاتل ويحدد لها هدفًا واحدًا وهو:

قتل جميع ذكور القرية.

ثم ولكي يضمن نجاح المهمة فإنه عيّن عليها القائدين بحر وأيوب..

وكان ذلك هو سبب استدعائه لهما في تلك الليلة.

٥

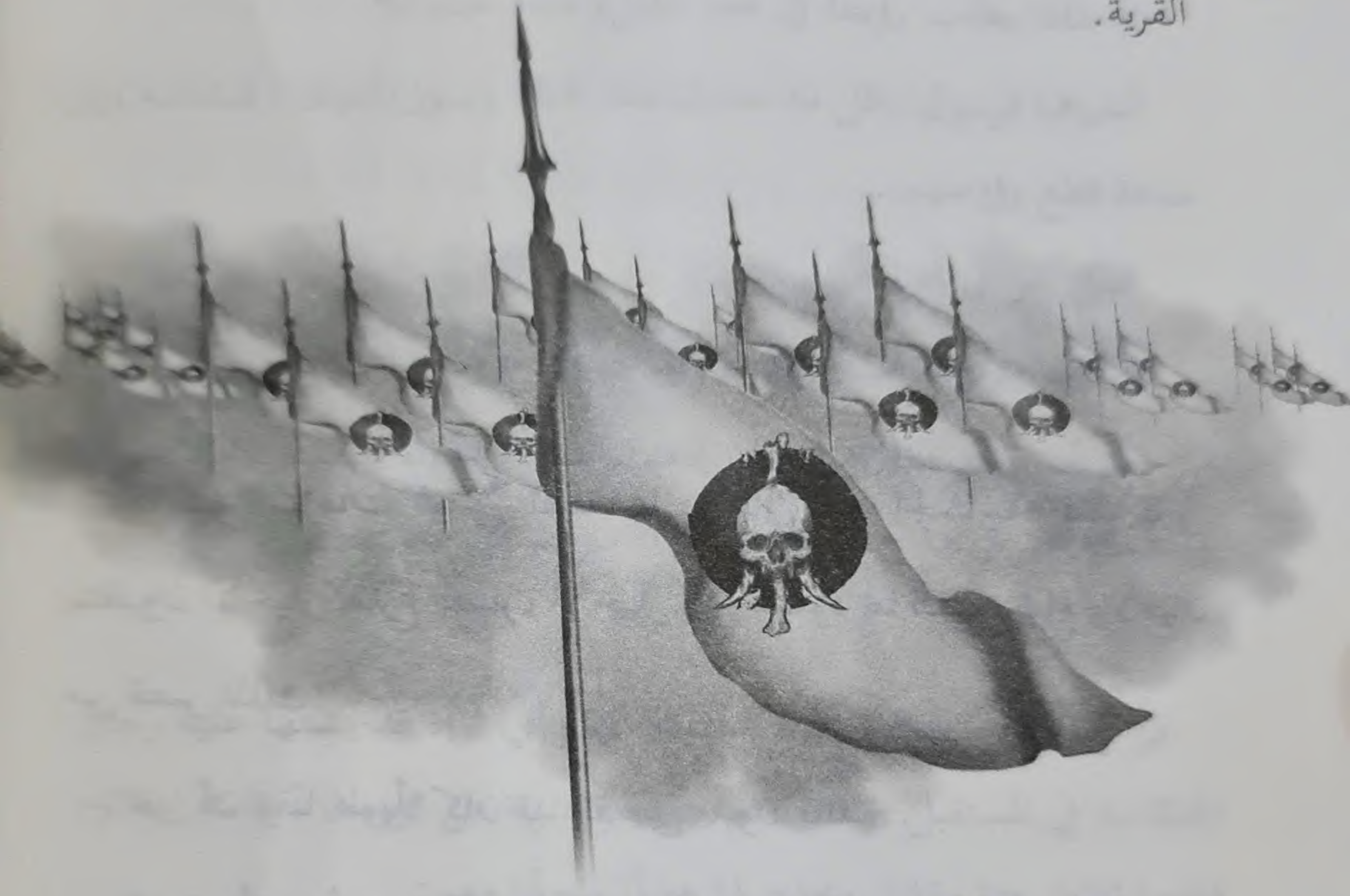
كانت الساعات تمضي ثقيلة على أهالي قرية الجسَّاسة؛ فقد كانوا ينتظرون الأخبار بفارغ الصبر، الأخبار التي سيعود بها الشيخ همام والأعيان من قصر الملك.

غير أن وقتًا طويلًا كان قد انقضى بدون فائدة..

ثم فجأة بدأت تنتشر في كل مكان شائعات غريبة لا أحد يعلم مصدرها، شائعات تقول بأن الملك قام بقص رأس الشيخ همام وكل الأعيان.

ثار الشباب لتلك الشائعات وبدؤوا يتوعدون بالثأر والانتقام غير أن عقلاء القرية حاولوا تكذيبها واقترحوا أن ينتظروا لعدة أيام أخرى من أجل التأكد من صحة الخبر.

ولكن عند فجر اليوم ذاته انقطع الشك باليقين وذلك عندما شن ثلاث مئة مقاتل يرفعون رايات الجاثوم هجومًا ساحقًا ضد أهالي القرية.



حاول رجال القرية الصمود وحماية أنفسهم من ذلك العدوان ولكن المعركة كانت غير متكافئة القوى؛ فقد كان أولئك الثلاث مئة مقاتل يحاربون بالسيوف والرماح.. ويصدون بدروعهم الحديدية الصلبة الهجمات المتواضعة التي يشنها عليهم رجال القرية من وقت لآخر بهراوات الخشب البالية.

كان الوضع خطيرًا للغاية..

وكان ذكور القرية في طريقهم إلى الفناء.

وصلت الأخبار - أخبار ما يحدث في القرية - إلى مسامع جبّار الأباطرة، فأمر أفراد العائلة بالتحصن داخل الغابة وعدم الخروج منها لأي أمر كان.

امتثل الجميع لأمره إلا جومانا التي عندما عرفت بما يحدث فإنها غادرت حُجرتها دون أن ينتبه إليها أحد وتسللت إلى القرية لأجل أن تطمئن على ريحانة.

**

ظهرت في منزل مَيثم..

فتشت عنها داخل المنزل دون أن تعثر عليها..

شعرت بالقلق في بداية الأمر ولكنها تذكرت كلام مَيثم عندما قال لها: " **اللص يتوقع الموت في أي لحظة، لذلك فقد أخبرتها بما يجب عليها فعله عندما يحيط بي مكروه ما؛ فلا تقلقي عليها.. إنها ستعرف كيف تتصرف** "

ولكن لحظة..

ماذا لو أن ريحانة لم تعرف كيف تتصرف؟

ماذا لو أنها بطريقة ما تورطت في الحرب التي تحدث في الخارج؟

ومن أجل هذه الفكرة المتشائمة قررت جومانا الذهاب للبحث عنها في طرقات القرية..

وكانت أثناء البحث تتألم كثيرًا لرؤية ما يفعله فرسان منظمة الجاثوم في القرية.

وقد أرادت لأكثر من مرة أن تتدخل في عمليات إنقاذ سريعة لبعض الحالات التي تحدث أمام عينيها ولكنها كانت تتذكر الوعد الذي قطعته لوالدها بخصوص الالتزام بقانون العائلة:

" القانون الذي ينص على عدم استخدام القوة أمام البشر "

فكانت تمتنع عن المساعدة وتمضي في مهمتها.

**

بحثت طويلًا..

وعندما لم تجد أثرًا لـ ريحانة فإنها تمنّت من أعماق قلبها أن تكون الصغيرة بخير..

ثم استدارت وهمّت بالعودة إلى الغابة المظلمة ولكنها ما كادت أن تسير أول خطوة في طريقها حتى امتدت يد أحد فرسان المنظمة إليها واختطفتها..

٦

كان ذلك الفارس اسمه " **غُفران** " وكان لا شيء يظهر من جسده الضخم المسربل بالدروع إلا عينان تلمعان من خلال فتحة خوذة رأسه الحديدية.

ورغم كل الحواجز والتحصينات التي كان يحيط نفسه بها إلا أنها كانت قادرة على قتله وتخليص نفسها منه ولكنها لم تفعل؛ وذلك بسبب التزامها بالقانون.

لهذا ما كان أمامها إلا أن تصرخ، كردة فعل طبيعية لما يحدث لها.

**

أثار صراخها انتباه القائد **بحر**..

وحين التفت نحوها وشاهد الرعب في عينيها البُندقيَّتي اللون شعر بالرحمة عليها.. كان شعورًا غريبًا بالنسبة إليه وهو الذي لم يكن قد شعر بالرحمة يومًا:

– غُفران، دع الفتاة تذهب.

لم يكن غُفران قد شاهد من قبل فتاة بذات حُسنها؛ لذلك رفض الامتثال لأمر قائده وقال:

- إنها لي لقد وجدتها أولًا، وسأضمها لبقية نسائي..

كان بحر هو الوحيد في منظمة الجاثوم الذي يُقاتل دون دروع أو خوذة حديدية تغطي رأسه؛ لذلك كانت ملامحه واضحة بالنسبة لجومانا..

وبالرغم من أنه كان يملك ملامح وجه عاصية إلا أنها توسمت فيه خيرًا فقالت تتوسله:

- اطلب منه أن يتركني.. أرجوك.

- دعها تذهب غُفران؛ فنحن لم نأتِ إلى هنا من أجل سرقة النساء.

أغلق غُفران فمها بيده المتسخة بالتراب والدم، حملها فوق ظهر حصانه كغنيمة حرب ثم قال عاصيًا أوامر قائده وهو يحاول الابتعاد بها:

- هذا لن يحدث يا بحر، سوف أقوم بأخذها.

وفي تلك اللحظة التف عليه بحر بسرعة ومن غير مقدمات ثم قام بغرس سيفه في فتحة العين الموجودة بخوذة رأسه لتخترق ذؤابة السيف حدقة عينه وتخرج من الجهة الخلفية لجمجمته..

كانت طعنة قوية اخترقت حتى جدار الخوذة الحديدية..

خافت جومانا من منظر الدم وهو يتفجر من رأس الفارس، فقال لها بحر يُطمئنها:

- لا تخافي.

ثم حملها بذراع واحدة وأجلسها خلفه على متن حصانه:

- تمسكي بي جيدًا، سأخرجكِ من هنا.

كان سيُخرجها من هناك ولكنه لم يستطع فعل ذلك..

وهذا لأن فرسان منظمة الجاثوم عندما شاهدوا قائدهم يقتل أحد زملائهم من أجل فتاة، فإنهم اعتبروا ذلك التصرف خيانة عُظمى وقرروا فورًا الانقلاب ضده وتنفيذ حكم الإعدام عليه؛ فقاموا بمحاصرته وتوجيه سيوفهم نحوه.

قال أحدهم:

- أسحرتك هذه الفتاة يا بحر، لتقتل غُفران من أجلها؟!

بحر يعلم بأن ما فعله للتو يعتبر خيانة وبأنه مهما حاول تبرير فعلته لهم فإنهم لن يقتنعوا بكلامه، هو يدرك أيضًا أن لا سبيل للفكاك من تلك الورطة التي أدخلهُ فيها تهوره غير الاشتباك المباشر معهم..

صاح مناديًا:

- أيوب أين أنت، أحتاج إليك!!!

ومن خلف فرسان منظمة الجاثوم ظهر فارس أسود اللون مَهيب أخذ يخترق الصفوف بسيفه ودرعه حتى وقف بجوار صديقه، قال وهو يرى الموت الذي يحيط بهما من جميع الاتجاهات:

- المنظر مخيف من هنا..

رد عليه بحر: ما زال في إمكانك الانسحاب.

ابتسم أيوب كاشفًا عن أسنان بيضاء بينها سنة واحدة ذهبية:

- الرجل الأسود لا يتخلى عن صديقه.

ثم بدأت المعركة..

وكان لبحر وأيوب البراعة الكافية التي تضمن لهما الصمود.. ولكن كان من المنطقي أن يبدأ الصديقان بعد فترة طويلة من الكر والفر بالشعور بالتعب والإرهاق..

قال بحر لاهثًا وهو يواصل القتال:

- يبدو أن نهايتنا اقتربت يا أيوب، آسف ما كان يجب علي أن أشركك في هذا الأمر.

- لا عليك يا صديقي.. لا تعتذر.. سيكون من دواعي سروري أن أرافقك نحو الجحيم.

استمرت المعركة لوقت طويل؛ لذلك كان لزامًا على فرسان المنظمة أن يستخدموا الغدر لإنهاء القتال.. فقام أحدهم بإرسال سهم غادر نحوهما..

أصاب ذلك السهم الفخذ الأيمن لبحر واخترقه قاطعًا شريانه الفخذي؛ مما تسبب له في خسارة الكثير من الدماء.. الأمر الذي جعل قوته الدفاعية تنهار بشكل سريع..

قال بحر يخاطب صديقه أيوب عندما بدأ يلمح اقتراب الهزيمة:

- خذ الفتاة واهرب بها وأنا سأغطي ظهرك ريثما تبتعد..

- بل سنبقى معًا حتى النهاية

- اسمع كلامي

- لا، لن أتركك.

بدأ بحر تدريجيًا يفقد تركيزه ووعيه بالأشياء من حوله نتيجة لكمية الدم الكبيرة التي فقدها جسده..

وعندما انتبهت جومانا إلى هذا وشاهدت بعينيها مقدار التضحية التي بذلها ذلك القائد من أجلها، فإنها قررت كسر قانون العائلة واستخدام قوتها الخاصة في إنقاذ الموقف..

توهج شعرها وعيناها باللون الأحمر القاتم وأمسكت بيدها ثياب بحر الذي فقد وعيه تمامًا .. ثم التفتت نحو أيوب .. مدت إليه يدها وقالت:

- أنت أمسك يدي..

كان أيوب منشغلًا بصد هجمات فرسان منظمة الجاثوم، ولم يفهم سر الطلب الغريب الذي كانت تلك الفتاة تطلبه منه؛ لذلك فإنه تجاهل اليد الممدودة إليه واستمر في القتال فصرخت عليه:

- ثق بي، أمسك يدي !!!

وما أن أمسك يدها حتى اختفى ثلاثتهم من وسط المعركة..

وانتقلوا إلى كهف بعيد مهجور وآمن..



سألها أيوب برعب:

- كيف فعلتِ ذلك؟!

- سأشرح لك لاحقًا - ثم صاحت بتوتر وهي تسد بيدها الجرح النازف لبحر:

- يجب أن ننقذه بسرعة؛ لقد فقد جسده الكثير من الدماء.

كانت جومانا بطبيعة الحال تجهل الكثير عن تكوين الأجساد البشرية؛ وهذا ما جعلها تقترح قائلة:

– ربما يُشفى لو أننا انتزعنا السهم من فخذه..

صحح لها أيوب:

– عندما يُصاب المقاتل بسهم أو رمح فإن جسده يُصبح مثقوبًا من ذلك الموضع.. ويُصبح حينها ذلك السهم أو الرمح بمثابة السدادة التي تخفف النزيف..

استوعبت جومانا الأمر:

– هذا يعني أننا لو قمنا بانتزاع السهم من فخذه فإننا بذلك نفتح سدادة الدم؟

– نعم؛ ولهذا السبب أكمل بحر القتال في المعركة دون أن ينزع السهم من فخذه.

– ماذا يجب أن نفعل؟

كان أيوب رجل حرب ولم يكن يملك الدراية الكافية لتقديم العلاج، وكل ما فعله تلك اللحظة هو أن قام بشق وصلة من قميصه ولفها حول منطقة الإصابة ثم قال:

– يجب أن نستدعي حكيمًا ليراه.

٧

في طريقها للبحث عن حكيم، مرّت جومانا بالكثير من القُرى..

كانت تعتقد أن الأمر سوف يكون سهلًا ولكن تبيّن لها عكس ذلك تمامًا فقد كان الحُكماء يسألونها أولًا عن هوية الشخص المصاب - يفعلون ذلك حتى لا يتورطوا بعلاج شخص خارج عن القانون - وكانت تُجيبهم بصدق:

- إنه أحد أفراد الجاثوم.

بعد سماعهم تلك الإجابة كان الحُكماء ينقسمون إلى فريقين: الفريق الأول يمتنع عن المساعدة بطريقة مهذبة، أما الفريق الثاني وهم الأكثر فقد كانوا يغلقون أبوابهم في وجهها بعد أن يشتموها أو يبصقوا على وجهها..

وهكذا انتقلت من قرية إلى قرية ومن منطقة إلى أخرى وكان الأمر يتكرر معها في كل مرة تطلب فيها المساعدة.. حتى لفَّ بها الطريق وأعادها إلى قرية الجسَّاسة.

كانت الأوضاع هادئة في القرية بعكس ما كانت تتوقع، إذ كان السكون والصمت يخيمان على المكان بأكمله وكأن فرسان المنظمة انسحبوا من هناك أو كأن خاسفًا خسف بهم.

جذب ذلك الموضوع انتباهها؛ فذهبت لموقع المعركة كي تستطلع الأمر وهناك شاهدت منظرًا عجيبًا:

لقد تم القضاء على كل أفراد المنظمة.

وبينما كانت مذهولة مما تراه وتفكر بأسباب ذلك إذ جاء صوت أحدهم من خلفها:

- الأميرة جومانا !!

التفتت نحو مصدر الصوت فشاهدت وزيرة والدها " **خيزران** " راكعة على ركبة واحدة، وتنظر للأسفل احترامًا:

- حمدًا للسماء أنكِ بخير أيتها الأميرة.

- ما الذي حدث هنا يا خيزران، من أبادهم؟

اعتدلت الوزيرة في وقفتها وقالت تشرح لها ما حدث:

- لقد نقلت لنا العيون ما حدث لك.. قالوا إن أحد أفراد المنظمة قام بخطفك.. فانطلق والدكِ مع بعض المقاتلين لنجدتك ولكنهم حين وصلوا لم يعثروا عليك.. فاعتقدوا أن مكروهًا قد أصابك فقاموا بقتل كل أفراد الجاثوم.

قالت جومانا تعبر عن مخاوفها:

- الناس سيتناقلون ما حدث، وناب الفيل سيعرف بأمرنا..

- لا تقلقِي فكبراء العائلة أصدروا القرار..

- أي قرار؟

- كل الشهود سوف يُسقون سائل النسيان.. وبهذه الطريقة لن يعرف ناب الفيل بما جرى.

استدارت وهمّت بإكمال مهمتها..

قالت الوزيرة خيزران: ألن تأتي معي يا سموّ الأميرة؟

- لا فلديَّ ما أقوم به.

- المنطقة ليست آمنة؛ قد يرسل ناب الفيل من يأتيه بالأخبار.

لم تكن جومانا لتكترث بذلك؛ فمع القوة الجديدة التي اكتسبتها بعد تدريبات والدها لها باتت تثق بقدرتها على التعامل مع أي خطر محتمل فقالت:

- سأكون بخير - وأضافت آمرة:

- عودي لوالدي وطمئنيه؛ لا بد أنه قلق عليّ الآن.

- أمرك.

**

اتجهت جومانا بعد ذلك مباشرة نحو منزل حكيم قرية الجسّاسة.. وطرقت عليه الباب..

الباب الرابع

١

فتح الحكيم باب المنزل وكان بحاجة لأن يقرص نفسه بعض القرصات ليتأكد من أن تلك الفتاة الجميلة الواقفه أمامه حقيقة وليست وهمًا يراه في حُلمه.

لم يكن يجيد الغزل ولكنه اجتهد فقال:

- لا بد أنكِ ابنة بقرة فاخرة؛ وإلا ما كنتِ بيضاء كالحليب هكذا.

كانت ستعاقبه لبلاهته تلك، ولكن حاجتها لمساعدته جعلتها تتجاهل كلامه:

- أرجوك ساعدني..

قال وهو ينفخ صدره ويشد عضلاته الغير موجودة:

- أهناك من يحاول أذيتك، فتبحثين عن فارسٍ شجاع لا يخاف شيئًا مثلي يحميك؟

- بل أبحث عن حكيم القرية، ألست الحكيم؟

- حكيم في الصباح، وعند المساء فارس يدافع عن الجميلات.

- هناك شخص في حالة حرجة، وجئت أطلبك أن تأتي لتعالجه.

حين أدرك بأن هناك مريضًا بحاجة للمساعدة فإنه سأل بجدية والتزام:

- ما به؟

- إنه فاقد للوعي وقد نزف الكثير من الدماء بعد أن أُصيب بسهم في فخذه.

سألها بشك عندما عرف أن ثمّة آلة حربية في الموضوع:

- أهو شخص خارج عن القانون؟

كانت تستطيع الكذب عليه لاستدراجه ولكنها خافت أن يكتشف هناك الحقيقة فيمتنع عن تقديم العلاج:

- إنه أحد أفراد الجاثوم.

اشمأز الحكيم بعد أن سمع إجابتها:

- صديقكِ خارج عن القانون، ولا أستطيع مساعدته.

- ولكنه إنسان مثلك ويجـ..

قاطعها: بل إنسان فاسد ويجب أن يموت لترتاح البشرية منه.

- أرجوك!!

- ظننتكِ تريدين مني أن أحميك من خطر ما يُهددك.. ولكنكِ جئتِ بهذا الطلب السخيف.. فارحلي أيتها الفتاة.. ارحلي قبل أن أغضب عليكِ ولا تجدين أحدًا يحميكِ من خطري..

ثم أغلق الباب بوجهها..

ولكنه ما كاد أن يدور ويعود لداخل المنزل حتى ظهرت معترضة طريقه، فما أن رآها الحكيم تتجلى أمامه من العدم حتى انكمش على نفسه وأطلق صرخة حادة تُشبه صرخة فتاة رأت صرصارًا يعبر من فوق قدمها.

في وقت آخر كانت جومانا ستضحك من ردة فعل ذلك الرجل النحيل والذي كان شعره المنفوش يجعله أشبه بعصا مكنسة أوساخ، ولكنها لم تفعل وقالت تعرض ورقتها الأخيرة:

- أسمعت يومًا بكنوز الأباطرة؟

والصدمة تسكنه حرك رأسه بعلامة " نعم " فقالت:

- ماذا لو أعطيتك شيئًا منها؟

- أأ.. أنتِ من الأباطرة؟

كان الوقت يُداهمها ولم يكن لديها وقت للمراوغة، فقالت:

- نعم - ثم أردفت تقدم له عرضها:

- سأعطيك قطعة ذهب من كنوزنا .. قطعة ليست عادية بل عليها ختم مملكة النبي سُليمان، إن قبلت بمساعدته.

- وإذا قلت لكِ لا؟

- لن أوذيك، سأدعك وأنصرف للبحث عن حكيم آخر.

- لن يقبل أحد بمساعدة صديقك أيتها الجنية

- أرجوك وافق أنت إذًا.

صمت يفكر لبعض الوقت ثم قال:

- هناك كتاب أريده

- كتاب؟

- يُشاع أن لعائلة الأباطرة كُتبًا ومخطوطات سرية في خزائنهم.

- أي كتاب بالتحديد تريده؟

- **قيامة سبأ**

- وهل سيكون هذا ثمن قدومك معي؟؟

- قطعة الذهب والكتاب، سيكون هذا الثمن.

- اتفقنا.

ذهب الحكيم ليجهز الأدوات التي قدّر أنه سيحتاجها للعلاج، جمعها في صُرة كبيرة من القماش وحين عاد سألها:

- أنا مستعد، كيف سنذهب؟

مدت إليه يدها:

- أمسك يدي، وسننتقل.

- ما رأيكِ أن أعانقك؛ كي تكون النقلة أسرع وأجمل؟

- ألم يخبرك أحد من قبل أن لسانك طويل؟

- بلى ولكنني لا أريد أن أخبرك بماذا كنت أرد عليهم.

- وأنا لا أريد أن أعرف، أمسك يدي وأنت ساكت.

أمسك يدها وأغمض عينيه وحين فتحهما بعد لحظات وجد نفسه في المكان ذاته فقال:

- غيرتِ رأيك وتريدين أن أُعانقك أليس كذلك؟

- أريد أن أعترف لك بأمر..

- أعلم .. أعلم .. أُعجبتِ بي .. معك حق؛ فأنا رجل لا تقاومه النساء..

قالت بغضب:

- أيها الحكيم، لماذا لا تصمت وتسمع؟!!

قالت لتكون واضحة معه منذ البداية:

- قطعة الذهب والكتاب ليسا معي في الوقت الراهن، وسرقتهما من خزينة العائلة سوف تستغرق وقتًا..

- عديني وسأنتظرك؛ فمن المعروف أن الأباطرة لا يخلفون الوعود.

- حسنًا، أعدك.

قالت ذلك ثم انتقلت به.

٢

ظهرت به بعد لحظات في الكهف المهجور الآمن.

اختلّ توازنه وشعر بدوار حاد جرّاء السرعة الفائقة التي نقلته بها؛ فانتقى زاوية في الكهف ليخرج ما ببطنه.

همس لها أيوب:

- تأخرتِ.

- آسفة، لقد رفض كُل الحكماء تقديم المساعدة.

- وكيف وافق هذا؟

- بالرشوة

- أمتأكده من أنه حكيم؟.. منظره لا يوحي بذلك.

التفت الحكيم نحوه بعد أن انتهى مما هو فيه:

- سمعتك

وأردف وهو يمسح فمه بكم قميصه وينهض من مكانه:

- تجاوز عن منظري يا هذا؛ فأنت إنسان مع أن ضخامة جسدك توحي بأنك غوريلا.

كان أول إجراء علاجي يقوم به الحكيم هو التأكد مما إذا كان بحر يتنفس بشكل جيد أم لا؛ فقام بمراقبة ارتفاع وانخفاض صدره فوجد أن تنفسه ضعيف جدًّا..

فتح فمه ليتحقق من أمر ما ثم قال بعد أن تحقق:

- لسانه يسد مجرى النفس.

أدخل أصبعه في فمه وقام بتعديل وضع اللسان، وعندما انتهى من ذلك عاد ليراقب ارتفاع الصدر وانخفاضه، قال وقد بدت عليه أمائر الراحة:

- لقد أصبح يتنفس بشكل جيد.

بعد ذلك ودون مقدمات جرَّده من كل ملابسه، ولفرط الحياء أدارت جومانا وجهها للجهة الأخرى وصاحت:

- لماذا فعلت هذا ؟!!

- لقد كان هذا الشاب يقاتل في معركة؛ ويجب أن أتأكد من عدد الجروح التي بجسده.

صحيح أن بحر كان نحيلًا ولكن عندما جُرد من ملابسه ظهرت عضلات جسد مشدودة قاسية كأنها نُحتت من حجر.. قام الحكيم بتقليب جسده ذات اليمين وذات الشمال ليتأكد أكثر من عدد الطعنات:

- لا جرح جديد غير الذي بفخذه..

وقال يُعلن عن الخطوة القادمة:

- سأقوم بإغلاق الجرح

ثم أخرج قطعة حديدية من صُرة القماش التي جلبها معه، وقال:

- أحتاج نارًا لتسخينها.

تقدمت جومانا:

- أنا سأتكفل بهذا الأمر.

نبهها الحكيم:

- أحتاج لحرارة مشابهة لحرارة النار، ليس أقل من ذلك.

أمسكتها بيد واحدة واستخدمت قوتها الخاصة لتسخينها.

واستمرّت تُمسك بقطعة الحديد تلك حتى بات الدخان يتصاعد منها، فقال لها:

- هذا يكفي، ستذوب قطعة الحديد في يدك.

**

نزع نصل السهم من فخذ بحر.. ثم قام مستعينًا بقطعة الحديد الساخنة بكيّ الجرح حتى التأم الموضع ولفَّ حول المكان قطعة من القماش النظيف..

وبعد قليل توقف النزيف بشكل تام.

كان الحكيم يستطيع مغادرة الكهف ولكن أمانته كمعالج حتمت عليه الانتظار لبعض الوقت حتى يتأكد من أن مريضه اجتاز مرحلة الخطر بسلام.

وبعد مرور قرابة ثلاث ساعات عاد ليرى موضع الجرح فوجد بُقعة رمادية واسعة القطر بدأت شيئًا فشيئًا تطفو على سطح الجلد فبدا غير مرتاح لرؤيتها..

وقرر البقاء بضع ساعات أخرى لأجل مراقبتها.

**

سأله أيوب بعد قليل:

- هل سيبقى غائبًا لفترة طويلة؟

أجابه شاردًا، متوجسًا من تلك البقعة الرمادية:

- لا، من المفترض أن يستعيد وعيه في أي لحظة.

٣

حلَّ الليل عليهم وأصبح الجو قارس البرودة..

ذهب أيوب إلى جوار الكهف حيث بعض الأشجار اليابسة، أخذ منها ما استطاع أن يأخذ من الأغصان وعاد ليُشعل بها نارًا للتدفئة.

تحلق ثلاثتهم حول النار.. وكان الصمت يغشاهم..

إنه صمت وتعب وقلق على صحة بحر، وربما كان القلق تحديدًا هو ما جعلهم يميلون إلى الصمت وعدم الرغبة بالحديث.. إلا أن الحكيم كان لديه موضوع خطير وعاجل عليه أن يخبرهما به فقال دون تلميح أو مقدمات:

- قدمه بحاجة للبتر.

زاد القلق في المكان، قال أيوب:

- أنا لن أسمح لك.

- أنا أتفهم أسباب رفضك، ولكن يجب أن تعلم أني لا أرغب ببتر قدم صديقك لأجل تعليقها زينة على حائط منزلي..

وأردف قائلًا:

- لقد تسبب السهم بقطع العِرق الذي يُغذي قدمه بالدم.

- ماهذه الترهات، قل كلامًا يُفهم بحق الرب عليك!!

صاح الحكيم وقد طفح كيله:

- قدمه ماتت وبحاجة للبتر، هل فهمت الآن أم أشرح لك بلغة الغوريلات؟؟

بكت جومانا..

بكت لأن موضوع البتر ذاك قد جلب لها ذكريات قديمة، وما كان يزيدها ألمًا ووجعًا هو يقينها بأنها السبب في كل ما يحدث الآن.

وأثناء ما كانت تبكي، قال صوت رابع في الكهف:

- لا عليكِ..

التفتوا جميعًا نحو مصدر الصوت،

وتملكتهم الدهشة..

٤

لقد كان الصوت الجديد هو صوت بحر وقد أفاق من غيبوبته.

كان مرهقًا شاحب الوجه ورغم ذلك إلا أنه ابتسم .. ابتسم لها حتى يهش عنها ما ترسب في قاع نفسها من حزن وتأنيب للضمير وقال:

- امسحي دموعكِ، لا عليكِ.. لديَّ قدم أخرى غيرها.

ابتسمت لحديثه، ومسحت دموعها.

ثم التفت نحو أيوب.. وزادت ابتسامته اتساعًا.. كان سعيدًا لأنه رأى صديقه بخير وأن مكروهًا لم يحدث له أثناء المعركة قال وهو لا يزال مبتسمًا:

- كيف نجونا ؟

- لقد تكفلتُ بأمر البقية، قضيت عليهم وحدي.

لم يتعجب بحر مما سمعه؛ فقبل أن يفقد وعيه.. يذكر أنه في معركته مع الجاثوم كان قد قتل الكثير منهم، وهو يُدرك أن أيوب - بمهارته العالية وذكائه وبعض الحظ - كان يستطيع إنقاذ الموقف.

حين انتهى أيوب من الإدلاء بإجابته نظر نحو جومانا فوجدها تنظر إليه بتعجب وقد أثارت كذبته استغرابها.. فأومأ إليها بإشارة خفية من عينه وكأنه يقول لها: " سأخبرك بسبب الكذبة لاحقًا "

أحسّت جومانا غريزيًّا في تلك اللحظة أن أيوب لا يريدها أن تكشف حقيقتها لبحر - حقيقة كونها جنية - لم تفهم السبب ولكنها لبّت نداء الشيء الذي فهمته.

**

بعد لحظات، قال بحر وقد انتبه لوجود الحكيم:

- من العنز؟

ربما لو كان القائل شخصًا آخر لكان الحكيم قد أفلت عليه لسانه، ولكن تقاسيم وجه بحر الحادة والقاسية وهيبته جعلت الحكيم يبتلع تلك المزحة ويقول بأسلوب مهذب:

- هذا العنز هو الذي ساعد في إنقاذ حياتك.

قال بنبرة صوت مُمتنة:

- شكرًا لك، أكمل عملك أيها الحكيم وافعل ما تراه مناسبًا.

تدخل أيوب بنبرة صوت غير راضية:

- كيف لك ألّا تكترث للأمر، وكأن هذه القدم ليست لك؟

وأضاف قائلًا:

- أنت مقاتل يا بحر، وبتر قدمك سوف يجعلك عدوًّا سهلًا لخصومك في المستقبل.

التفت بحر نحو الحكيم وسأله:

- أهناك احتمال لشفاء قدمي؟

- لقد سبق وقلتُ إن السهم قد اختر..

- لم أسألك عن هذا.. أهناك احتمال لشفاء قدمي.. نعم أم لا ؟

- لا ..

- وهل سيتغير من الأمر شيء لو أنني حزنت أو اكترثت؟

قال بلهجة فيها الكثير من الوقار والحكمة:

- إن الأمل يا سيد بحر قادر على خلق المعجزات و..

صاح بحر عليه:

- **أأنت معتوه أم ماذا ؟.. أجبني بنعم أو لا !!!**

اطلق الحكيم صرخة مكبوتة:

- **لا!!!!**

التفت بحر إلى صديقه أيوب وقال:

- هل سمعت ؟.. لماذا تريدني أن اكترث إذًا

بدأ الحكيم يخرج أدوات البتر من الصُّرة القماشية.. ولكن جومانا أوقفته:

- كنا نسمع دائمًا عن حجم المعرفة الهائلة التي يملكها حكيم قرية الجسَّاسة وعن مدى براعته في المعالجة؛ فإن كان ما يُشاع عنك حقيقة وليس كذبًا فجِد لنا حلًّا غير البتر..

وأضافت متوسلة:

- أرجوك.

في الحقيقة كانت هناك فكرة تدور برأسه منذ البداية ولكن لأنها فكرة مستحيلة التنفيذ فإنه أخفاها عليهم وبدا غير متحمس لقولها ولكن طالما أنهم يصرون عليه بإيجاد الحل فإنه سيخبرهم بما يفكر به:

- هناك فكرة ولكنها غبية بعض الشيء..

أصغى له الجميع،

بينما استعد لقول فكرته..

٥

- هناك أسطورة قديمة تقول إن: **سبع قطرات من دموع العنقاء كفيلة بشفاء عِلّة الإنسان..**

وأضاف محذرًا: ولكن من المعروف أن لا أحد من الرجال الذين ذهبوا إلى هناك استطاع أن يحصل على تلك الدموع.

علّق بحر مستخفًا من تلك الفكرة:

- إنه من الغباء أن يُضحي أحد بحياته لأجل إنقاذ قدم ميتة.

- أعلم؛ ولأجل هذا قلت إنها فكرة غبية..

علّق أيوب:

- **إذا كان إنقاذي لصديقي يُعد عملًا غبيًّا، فأنا أحب أن أكون غبيًّا.**

وأردف قائلًا وقد اتخذ قراره:

- أنا سأحضر الدموع.

قال الحكيم كما ليُخلي مسؤوليته:

- أرض العنقاء مكان خطير جدًّا يا أيوب..

أيوب وهو ينهض:

- لا بأس؛ فالغوريلات يندفعون نحو الموز دون التفكير بالعواقب.

ضمّت جومانا صوتها إلى صوته:

- وأنا سآتي معك.

كان بحر شخصًا محبوبًا ويملك دون تكلّف مهارة الدخول إلى قلوب الآخرين، كل الناس يحبونه ولكنه لا يحب نفسه؛ وذلك لسبب بسيط وهو أنه يُدرك أنه شخص سيئ.

وهذا الإدراك هو ما جعله يرفض تلك التضحية:

- أقدر لكما هذا القرار، ولكنني مع خيار البتر..

أما الحكيم فإنه بطبيعة حياته المهنية كان قد اعتاد مثل تلك العمليات الجراحية ولم يكن يرى فيها ما يدعو للقلق، وفي الوقت ذاته كانت نفسه تتلهف لقبض الثمن الذي وعدته به جومانا " **القطعة الذهبية، والكتاب** " لهذا قال لينهي الأمر بسرعة:

- سأقوم بتحضير مشروب نبتة الخشخاش؛ وهذا المشروب يا سيد بحر سيجعلك تفقد وعيك فلا تشعر بشيء.

لكن جومانا أوقفته:

- مهمتك أن تُنقذ مريضك، لا أن تساعده على أذية نفسه.

ربما يبدو الحكيم شخصية هازلة غير جادة - وذلك بسبب لسانه الطويل وحبه للكلام المبتذل - وربما يبدو أيضًا في أحيان كثيرة أنه شخص يتقبل إهانات الآخرين وتعليقاتهم السيئة بصدر رحب.

ولكن حين يتعلق الأمر بمهنته فإنه لا يقبل أن يتَّهِمَه أحد بالإهمال أو التقصير؛ فقال وقد تغيرت نبرة صوته وأصبحت جادة صارمة حازمة:

- دعيني أشرح لكِ الأمر بطريقة مبسّطة - ثم أشار نحو بحر وقال:

- هذا الرجل ماتت قدمه.. وإن لم نقطعها ونتخلص منها فإن الموت سوف ينتقل إلى بقية أعضائه حتى يصل إلى القلب؛ لذلك عندما أقول بأنني سأقوم ببتر قدمه فأنا بذلك أُنقذه..

قالت بعناد:

- ونحن نريد أن نُنقذه كله، مع قدمه.

- ستضيعان الوقت والنتيجة واحدة، أنتما لن تنجحا - وأضاف هازئًا: أتريدين أن أغنيها لك حتى تفهميها أكثر؟

قالت:

- طالما أننا أحياء فإن الوقت ما زال مبكرًا على الاستسلام أو إعلان الهزيمة.

- حكمة جميلة ولكنها تصلح للكتب، وليست للحياة.

ثم أضاف: ألم تسمعيني قبل قليل عندما قلت إن كل الرجال الذين ذهبوا عادوا بالفشل؟؟

- سمعتك تقول الرجال، ولم تقل النساء.

- تقصدين أن النساء خير من الرجال؟!

- لم أقل ذلك

- بل هذا ما قصدتِه بكلامك.

- أنا مسؤولة عما أقوله، وليس عما يفهمه عقلك.

صاح وهو يشد شعره:

- آآآآ عقولكن كالحمير، ولكنكن جميلات وهذا ما يشفع لكن!!

- سأبتر لسانك إن لم تراقب كلامك..

قال ساخرًا: لا بأس ابتريه؛ سأتناول حينها دموع العنقاء التي سوف تجلبانها وسأُشفى..

- لن تُشفى؛ لأن دموع العنقاء تَشفي عِلة الإنسان وليس البِغال.

وكان ذلك الجدال سوف يمتد طويلًا ولكن السيف أنهاه مبكرًا، السيف الذي وجهه بحر فجأة نحو عُنق جومانا وصوته الهادر الغاضب وهو يقول لها:

- لقد أصدرتُ أمري أيتها الفتاة، ومنذ الآن وصاعدًا هذا السيف سيكون جزاء من يُخالف الأمر.

امتدت يد أيوب نحو نصل السيف الموجه إلى عنق جومانا، وقال يخاطب صديقه:

- اهدأ يا بحر؛ الفتاة تريد مساعدتك لا أكثر.

لم يُنزل سيفه وظل يوجهه نحو عُنقها، وقال بنبرة ساخطة:

- أخبرها أنني لا أحتاج لشفقة أحد، ولا أريد مساعدتها..

قالت جومانا تبرر وجهة نظرها:

- أنا لا أُشفق عليك، أريد فقط أن أساعدك كما ساعدتني.

قال لها آخر كلام كانت تتوقع أن تسمعه:

- أنا نادم على أنني قمت بمساعدتك؛ ولو يعود بي الوقت لكنت قد جعلت غُفران يقوم بخطفك لأجل أن أرتاح من هذه الثرثرة..

ثم أبعد السيف من عند عُنقها وأشار به نحو مخرج الكهف وقال آمرًا:

- اغربي عن وجهي، لا أريد أن أراك مرة أخرى..

ثم متوكئًا على سيفه عاد ليتمدد فوق كومة القش دون أن يُلقي لها بالًا وهي تنسحب مخذولة من الكهف..

قال يأمر الحكيم:

- حضّر لي شراب نبتة الخشخاش، بسرعة.

٦

بعد قرابة الساعة انتهى الحكيم من تحضير الشراب وقدّمه لبحر في آنية من الفخار وهو يقول له:

- إنه ساخن جدًّا وطعمه شديد المرارة، كن حذرًا وأنت تشربه.

أخذ بحر من يده الآنية وارتشف الشراب دُفعة واحدة ضاربًا بتلك التحذيرات عرض الحائط، ثم قال هازئًا بعد أن كرع في وجهه:

- هذه التعليمات قُلها لدجاجة مثلك.

- لسانك ميت يا سيد بحر، ما رأيك أن أبتره لك أيضًا؟

سدد بحر إليه نظرة حادة جمّدت له الدماء في عروقه، ابتلع الحكيم ريقه من شدة الخوف وقال مقلدًا صوت الدجاجة:

- بق بق..

بعد لحظات بدأ بحر يشعر بثقل في رأسه وبصعوبة شديدة في إبقاء عينيه مفتوحتين، فقبض على الحكيم من ثيابه وسأله:

- متى سأستيقظ؟

- بعد يوم ونصف تقريبًا

- لديك وقت كافٍ إذًا - قال ذلك ثم سأله:

- أتريد أن تخسر رأسك؟

- لا؛ فحينها لن أستطيع أن أُمتع ناظريَّ برؤية وجهك الجميل.

- إذا زال مفعول الشراب وأنت لم تُنجز مهمتك، أعدك أنك لن ترى وجهي أبدًا..

- لأنك ستغضب مني وتغادر إلى حكيم آخر، أليس كذلك؟

- لا، بل لأني سأقتلع رأسك من مكانه.

وما أن انتهى من قول ذلك حتى كان الشراب قد سيطر عليه وأُغلقت عيناه.

**

حين تأكد الحكيم من أنه فقد وعيه قرر أن يستعيد كرامته المهدورة بإطلاق سيل الكلام المكبوت بداخله:

- مرّة عنز، ومرّة أخرى دجاجة؟.. لماذا يُشبهني بأنثى الحيوان دائمًا من يظن نفسه هذا الأبله المتعجرف ؟!!

تدخل أيوب:

- اغفر له أيها الحكيم..

- كيف تحتمل صديقًا مثل هذا، إنه غليظ النفس سيئ الخُلق.

- هو ليس كذلك ولكنها حيلة دفاعية يتبعها؛ إنه يؤذي مشاعر الذين حوله ليجعلهم لا يشعرون بالشفقة عليه، **إنه يُفضل أن يكون مكروهًا ولا أن يكون مُثيرًا لشفقة أحد..**

ثم من العدم ظهرت جومانا وهي تقول بحماس:

- ولكن حيلته تلك لن تنطليَ علينا.

انكمش الحكيم على نفسه وأطلق صرخة خائفة عندما رآها.. وحين زال أثر الرعب من عليه بعد لحظات سألها:

- ماذا تقصدين؟

- أقصد أننا سنذهب لأرض العنقاء ونُحضر له الدموع.

- ولكنه قد يفيق في أي لحظة - وأضاف كاذبًا ليُقنعها:

- فشراب نبتة الخشخاش الذي حضرته له كان خفيف التركيب..

- وأنت خائف منه أليس كذلك؟

- أنا خائف ؟.. ممَّ أخاف ؟؟ منه ؟؟ .. لا بالطبع لقد صفعته على وجهه قبل قليل .. لم أكن أريد أن أُهينه أمامك، فانتظرتك حتى تغادري ولقنته درسًا في الأخلاق والأدب.

- ولكنني لم أغادر الكهف وكنت معكم طيلة الوقت.

- وسمعتِ كل شيء؟

هزت رأسها وقالت ساخرة:

- بق بق

أما وقد انكشفت كذبته فقال يُعبر عن شعوره:

- يا ويلي.. سيقتلع رأسي إن استعاد وعيه ولم أُنجز مهمتي!!

- لا تقلق، سنعود إلى الكهف قبل أن يستعيد وعيه..

- ولكنني خائف..

- الخوف لن يمنعنا من الفشل، الخوف يمنعنا من النجاح.

ثم قالت تستأذنه كونه المعالج، والمسؤول عن صحة مريضه:

- أرجوك وافق..

كان الحكيم يعلم أنهما سوف يذهبان إلى هناك بموافقته أو من دونها لذلك قال كي يبدو أنه صاحب القرار:

- حسنًا، موافق.

قال أيوب يشرح آلية العمل:

- سأذهب أنا وجومانا لأرض العنقاء، بينما تبقى أنت أيها الحكيم ملازمًا لبحر..

- أخشى إذا تأخرتما عليه أن ينتقل الموت من قدمه لبقية أعضائه.

قال أيوب وكان قد أعد حلًّا لتلك المشكلة:

- من المتوقع أن تستغرق رحلتنا مدة يوم .. فإذا تأخرنا أكثر من ذلك فاعلم أن مكروهًا قد وقع لنا وأننا لن نعود أبدًا، فتستطيع حينها أن تبتر قدمه..

وقال يوصيه: هناك شيفرة اتفقت أنا وبحر أن نقولها عند الوداع، فإذا لم أعد أريدك أن تنقلها له، قُل له **بأنني لا أقدم له اعتذارًا؛ فالأصدقاء ليسوا بحاجة للاعتذار..**

بدا الحكيم متأثرًا حزينًا لوداعهما، وقال برجاء:

- ولكنكما سوف تكونان بخير، وسوف أراكما مرة أخرى أليس كذلك؟

أن المرء يرتاح لفكرة وجود شخص ما يقلق عليه ويتمنى له الخير؛ لذلك أحست جومانا بالفرح حين وجدت من يهتم بشأنها وسألت:

- أحقًا أنت خائف علينا أيها الحكيم؟

- بالطبع؛ فلو حدث لكِ مكروه فمن سيعطيني الثمن الذي اتفقنا عليه؟!!!

٧

لقد عقدوا العزم على الذهاب إلى أرض العنقاء.. ولكنهم لا يعرفون شيئًا عن ذلك المكان.. ولأجل هذا قررت جومانا الذهاب لقلعة العائلة للحصول على بعض المساعدة..

دخلت حُجرتها.. تربعت أرضًا.. أغلقت عينيها واستخدمت قوتها الخاصة في التخاطر لتستدعي شخصًا ما.. ولم تتوقف عن التخاطر إلا حين جاءها الصوت بعد قليل:

- عندما سمعتُ نداءكِ اعتقدتُ أنني واهمة.

فتحت عينيها ونظرت بصمت نحو الشخص الذي جاء..

**

كانت جومانا تحمل مشاعر متناقضة تجاهها.. إنها تُحب والدتها لكنها تكره كل أفعالها.. ورغم هذا وذاك كان لا بد من استدعائها تلك اللحظة:

- أريد منكِ خدمة.

كانت تاج تعلم أن ابنتها لن تستدعيها بعد قرابة ثلاث سنوات من الفراق والقطيعة إلا لأجل أمر خطير:

- ماذا تريدين؟

- أريدكِ أن ترافقيني لأرض العنقاء؛ فأنتِ تعرفين الكثير من القصص حول تلك المنطقة وسيكون وجودك مهمًّا..

- أنتِ تمزحين، أليس كذلك.. قولي أنها دعابة كي أضحك..

- أتعتقدين أني أستدعيكِ بعد كل هذه المدة لألقي عليكِ دعابة؟

- لا بد أن خللًا ما أصاب رأسكِ إذًا.

- لا، لم يصب رأسي أي خلل.

- لماذا إذًا تقولين إنكِ تريدين الذهاب إلى هناك؟

- أريد دموع العنقاء؛ لأنقذ شخصًا.

- ما أعرفه أن دموع العنقاء تشفي المريض، لا الميت.

- ليس مَيثم من أتحدث عنه.

- إنسي آخر؟!!

كان ينبغي عليها أن تمهّد لها الأمر، ولكن الظرف الراهن لا يحتمل التأخير فقالت تخبرها بما لديها دفعة واحدة:

- اسمه بحر وهو أحد قادات الجاثوم وقد أنقذني مع صديقه أيوب من الاختطاف..

كانت تلك المعلومات أكثر صعوبة من أن تستطيع تاج استيعابها، وقد احتاجت لبعض الوقت حتى تفهم معانيها، وقالت بعد قليل كما لتتأكد من جُزئية ما:

- أقلتِ إنهما يعملان مع الجاثوم؟؟

- نعم قلت هذا.

اتسعت عيناها لفرط الدهشة:

- أأنساكِ الوقت من تكون هذه المنظمة ؟!!

قالت لتُؤكد لوالدتها أنها لم تنسَ:

- إنها المنظمة التي استعان بها طاغين في الماضي للانقلاب على والدي واحتلال عرشه.. أنا لم أنسَ هذا الأمر يا أمي ولن أنساه؛ فالجاثوم عدونا الأول..

- والأعداء يا جومانا .. أأنساك الوقت كيف ينبغي عليك التعامل معهم؟.. ينبغي علينا قتل الأعداء، لا أن نُلقي بأنفسنا للتهلكة من أجلهم.

- ولكن بحر وأيوب انقلبا على المنظمة لأجلي.

- وألم يخطر ببالك أنهما قد ينقلبان عليكِ بعد أن يكتشفا حقيقتك؟

- إنهما مختلفان..

- سأعطيكِ نصيحتين فيما يخص البشر .. النصيحة الأولى هي ألّا تثقي بأحد منهم .. والنصيحة الثانية هي ألّا تنسي النصيحة الأولى أبدًا.

لم يكن هذا وقت العناد فصمتت جومانا ولم تعلّق، بينما قالت تاج متسائلة:

- هل يعلمان أنكِ جنية؟

- أيوب يعرف فقط.

- ويعرف أنكِ من عائلة الأباطرة تحديدًا ؟!

- لم يكن يعرف، ولكن أعتقد أنه الآن بات يعرف..

- ماذا تقصدين بأنه الآن بات يعرف؟

لم تكن واثقة من ردة فعل والدتها حين تكتشف المصيبة القادمة، لكنها قالت:

- اخرج يا أيوب.

من داخل إحدى خزائن الثياب المنصوبة داخل الحُجرة، خرج أيوب بجسده الضخم والذي كان مقاربًا لحجم الخزانة.

٨

ما أن رأت تاج ذلك المنظر - منظر وجود أحد من الإنس في قلعة الأباطرة - حتى أخرستها المفاجأة، واحتاجت لبضع دقائق حتى تتحقق من أنها ليست في كابوس سخيف..

قالت وهي تضرب بطنها بحسافة وأسف:

- لتلعن السماوات هذا البطن الذي حملك.

ثم انطلقت نحو أيوب وسددت له لكمة قوية.

لم يتحرك أيوب وبقي ساكنًا وهو يرى اللكمة تقترب - فقد وعد جومانا ألّا يستفز والدتها بأي حركة دفاعية، وقد وعدته هي في المقابل بأنها لن تسمح لأحد بأن يمسّه بالأذى - وفعلًا قبل أن تصل اللكمة إليه كانت جومانا قد أوقفتها..

أوقفتها بواسطة إصبع يدها.

أدركت تاج مدى القوة الهائلة التي حصلت عليها ابنتها، لقد أوقفت لكمتها بواسطة إصبع واحد فقط.. وما كان لأحد من الجن أن يفعل ذلك أبدًا إلا " **جبّار الأباطرة** "

قالت جومانا:

- لقد وعدته بالأمان.

ردت تاج متحدية: " سنرى " ثم اختفت من مكانها..

بقيت بعد رحيل والدتها تحافظ على وضعيتها الدفاعية؛ كانت تعلم أن والدتها ستهاجم مرة أخرى..

لقد أصبحت تملك قوة أكبر من السابق بكثير - والفضل في ذلك يعود لتدريبات والدها - وبالتالي فقد كانت قادرة على صد هجوم والدتها لمدة لا نهائية ..

ولكنها خافت من أن يجذب صوت القتال أحد أفراد العائلة إلى حُجرتها فينكشف أمرها لذلك عجَّلَت بقول ما لديها:

- لديَّ صفقة.

ومكثت لبعض الوقت دون أن تتلقى ردًّا، فقال أيوب:

- ربما غادرت والدتك الحُجرة.

- لا؛ إنها فقط تريد أن توهمني بذلك حتى أُرخي دفاعي عنك، فتهجم عليك - ثم أضافت وهي تنظر فيما حولها: أعلم أنكِ هنا، أظهري نفسك واسمعي الصفقة.

جاء الصوت من الفراغ:

- صفقتكِ مرفوضة قبل أن أسمعها.

- لا تتعجلي، أراهن أنكِ ستغيرين رأيكِ بعد سماعها.

كانت تتحدث بثقة عالية، مما أجبر تاج على أن تقول:

- إني مُنصتة.

- **وافقي .. وسأغفر لك قتلك مَيثم في المقابل.**

حينها فقط أظهرت تاج نفسها وقالت متعجبة:

- ما ظننتكِ تفعلين هذا أبدًا..

في الحقيقة هي لم تنسَ مَيثم فما زال ذلك الصديق يسكن قلبها ولكنها تعي أن الحقد لن يعيد إليه الحياة، بينما المغفرة قد تُنقذ شخصًا آخر:

- أأنتِ موافقة على الصفقة؟

- وسوف تسمحين لي بالعودة إلى القلعة؟

- نعم، سأخبر والدي أنني بحاجة إليك، وسيسمح لك بالعودة.

- موافقة - قالت ذلك وأضافت:

- خذي الإنسي واتبعيني.

**



٩

ذهبت تاج بهما نحو " **مربط الخيول** "

وهي منطقة فسيحة توجد داخل حدود الغابة المظلمة، يترك الأباطرة فيها خيولهم المجنحة لترعى وتُطلق سيقانها وأجنحتها للريح، قالت تاج مُنادية:

- **سابح !!**

ما أن سمع الحصان المقصود اسمه حتى صَهل وطار إليها..

كان حصانًا أبيض مجنح جميل ذا شعر كثيف مُجعد..



- لماذا لا نذهب إلى أرض العنقاء عبر الانتقال؟

اقتربت تاج من حصانها، أجابت وهي تُمسّد شعره بيدها:

- أرض العنقاء تُعد من المناطق العازلة.

- منطقة عازلة؟

- إنها منطقة لا يستطيع فيها الجن استخدام قوتهم لذلك سُميَت عازلة، ولكي نذهب إلى هناك فنحن بحاجة لأن نمتطي ظهور الأحصنة.. خذي حصانكِ من المربط واختاري لهذا الإنسي حصانًا مناسبًا.. وأنا سأمتطي ظهر سابح؛ إنه حصان قوي ورائع..

صهل الحصان " **سابح** " بصوت عالٍ وضرب الأرض بقدميه وكأنه يعبر عن فخره بتلك الكلمات..

نادت جومانا حصانها " **عَريق** " وكان ضخمًا مجنحًا بندقيّ اللون كما هو لون عينيها..

واختارت لأيوب حصانًا آخر..

**

حلّقت بهم الأحصنة الثلاثة نحو أرض العنقاء..

كانوا يملكون تصورًا مبدئيًا عن الصعوبة التي ربما تواجههم، ولكن لا أحد منهم كان يتوقع الصعوبة الحقيقية التي تنتظرهم هناك.

١٠

للإنسان قُدرة محددة لتحمل الضغط الجوي.

وكانت الأحصنة الثلاثة تفهم غريزيًّا هذا الأمر لذلك فقد كان الحصانان اللذان يحملان جومانا وتاج يرتفعان وينخفضان بالقدر الذي يجدانه ملائمًا أثناء الطيران، بينما الحصان الذي يحمل أيوب كان حريصًا ألّا يرتفع لأكثر من سبعة آلاف قدم..

**

بعد خمس ساعات من الطيران السريع وصلوا إلى المنطقة العازلة فأحست جومانا وتاج بقوة الجن تُعزل منهما.. واصلت الأحصنة الطيران وبعد ساعة إضافية ظهرت لهم أرض العنقاء في الأفق..

أعطت تاج الأمر بالهبوط..

وعندما هبطوا إلى الأرض سألتها جومانا: لماذا هبطنا هنا؟

- لو أكملنا الطيران فإننا سندخل المجال الجوي لأرض العنقاء وربما قامت الطيور بمهاجمتنا؛ لذلك ستبقى الأحصنة هنا بينما نكمل نحن التسلل على أقدامنا..

قال أيوب لافتًا الانتباه لمشكلة لم تنتبه عليها تاج:

- حتى لو أكملنا التسلل على أقدامنا فإن الطيور قد ترصدنا؛ فنحن ثلاثة أهداف متحركة..

انتبهت تاج لتوها للأمر؛ ولكنها لم تشأ أن تُقرَّ بصحة ملاحظته فتعترف له بذكائه..

سألته جومانا:

- وكيف تقترح أن نتصرف حيال ذلك؟

كان جاهزًا بالخطة:

- سوف نمتزج بالبيئة المحيطة حولنا - وأضاف شارحًا:

- سيحمل كل واحد منَّا أغصانًا مليئة بالأوراق الخضراء، نختبئ تحتها أثناء الحركة وهذا ما يُسمى في الحروب بأسلوب التمويه.

قالت تاج تُسخف من فكرته:

- خطة غبية؛ فالعنقاء بالتأكيد سوف ترانا.

- أعلم ولكنها؛ ستظن أننا أشجار.

- لكنها ليست غبية، فهي تُدرك أن لأشجار لا تتحرك.

- بصرها سيخدعها سنبدو ثابتين بالنسبة لارتفاعها العالي.. وبالنسبة لسرعة حركتها في الهواء.

تاج تُدرك في قرارة نفسها أنه محق في كل كلمة قالها، لكنها ما زالت تكابر وترفض .. أيوب في المقابل كان يُدرك أسباب رفضها؛ فقال ليجعلها تبدو وكأنها القائد الذي يأمر وينهى فيُنسب له فالأخير فضل النجاح:

- هذه الخطة لن تنجح دون قائد مُحنك يقودها، فإذا رأيتِ يا سيدة تاج أنها مناسبة فقودينا أنتِ لتحقيقها.

صمتت تاج وبدت كما لو أنها تفكر، لقد كانت خطته مُحكمة فعلًا ولا سبيل سواها فقالت تعطي الأمر:

- ليحمل كل واحد منّا أغصانًا مليئة بالأوراق الخضراء..

**

تحت الأغصان الممتلئة بأوراق خضراء تسلل الثلاثة نحو أرض العنقاء، واستطاعوا أن يُحققوا انتصارًا كبيرًا بالتوغل إلى الأمام دون أن يُكشف أمرهم..

كان يفصلهم عن غروب الشمس قرابة الساعة، لذلك قالت تاج تُعطيهما الأمر:

- سوف ندخل منطقة الأعشاش ليلًا..

اختبؤوا أسفل شجرة كبيرة وأخذوا ينتظرون حلول الليل.. وبينما هم كذلك إذ سألت تاج:

- أيستحق صديقك ذاك منّا كل هذه المجازفة؟

لم يرتح أيوب لصياغة ذلك السؤال فقال:

- أنتِ لا تجازفين لأجل صديقي يا سيدة تاج بل لأجل الصفقة التي عقدتها مع ابنتك.. ابنتك أيضًا لا تجازف لأجل صديقي بل لكي ترد له معروفه عندما غامر بحياته لإنقاذها.. أنا هنا فقط من يُجازف لأجل صديقي..

أكمل أيوب قائلًا وهو يُسند ظهره على جذع الشجرة:

- ذات يوم وعندما كنتُ في التاسعة من عمري.. طلب والدي مني أن أرافقه للسوق، قال إنه يريدني أن أساعده في حمل بعض الحاجيات فذهبت معه..

لم يعد أيوب يذكر شيئًا عن حياته السابقة..

لقد نسي كل ما يخص تلك الحقبة.. نسي أفراد عائلته - أسماءهم وأشكالهم - نسي منزلهم واسم القرية التي كانوا يعيشون فيها، وما عاد يتذكر إلا ذكرى واحدة فقط: إنها ذكرى ذهابه مع والده إلى السوق وتحديدًا **عندما دخل معه زقاق بيع العبيد.**

١١

هناك في زقاق بيع العبيد شاهد أيوب ذو السبعة أعوام منظرًا غريبًا جدًّا: لقد شاهد شبانًا وشابات داخل الأقفاص - كانوا عُراة كما ولدتهم أمهاتهم - وسمع زبائن يسألون التجار عن أثمانهم وشاهد بعينيه بعض عمليات البيع والشراء..

سار به والده حتى وصل خانًا عُلقت عليه لافتة مكتوب عليها **الشابندر عدنان**.. قال الأب يأمر ابنه وهو يهمُّ بالابتعاد عنه:

- ابقَ هنا..

بقي أيوب هناك يراقب انزواء والده مع التاجر..

لم يستطع أن يستمع لحديثهما، لكنه استطاع أن يرى التاجر الأصلع اليدين الأشبه بسمكة اليافوخ وهو يعطي والده صُرة سوداء بدت أنها من تلك التي يحفظ الناس فيها أموالهم..

أخذ والده الصُرة، وضعها في جيبه ثم ابتعد دون أن يلتفت نحو ابنه.

اعتقد أيوب أن والده نسيه فهمَّ بالركض خلفه ولكن عمال التاجر أمسكوه قبل أن يبتعد ثم حملوه إلى القفص، صاح الصغير مستنجدًا بوالده:

- أبي، أبي !!!

حينها قرصه التاجر من أُذنه بقوة، وقال له:

- أنت عبد، والعبد لا أب ولا أم له..

أدرك حينها أيوب أن والده لم ينسه بل باعه لذلك التاجر..

لم يكرهه فالحُب والكُره مسألة قلبية..

لكنه فقد الثقة به وقرر ألّا يسامحه أبدًا؛ لذلك عندما عاد والده لاحقًا للتحدث إليه وقال: " انظر.. هذا أنا أبوك " رد عليه أيوب بقول التاجر:

- أنا عبد، والعبد لا أب ولا أم له..

**

سارت قافلة الشابندر عدنان وحطت في سوق آخر..

كان السوق الآخر أكبر وأكثر ازدحامًا بالزبائن مما كان عليه سوق الجسَّاسة، وبينما أقفاص العبيد معروضة للعامة إذ جاء زبون ما وقد بدت على هيئته أمارات الثراء الفاحش.

توقف الزبون الثري عند خان الشابندر - وكان معه مجموعة من الأتباع والمرافقين - وأخذ يتأمل أقفاص العبيد ويعاينهم حتى جاءت عينه على واحد منها فقال:

- أخرج لي هذا العبد أيها الشابندر..

والشابندر يمتثل للطلب: كما يأمر حضرتكم.

سأل الزبون الثري بينما يفحص العبد:

- كم عمره وما اسمه؟

- اسمه أيوب، وقد أخبرني والده أنه في بداية التاسعة من عمره.

- يبدو أطول من صبي في التاسعة، وعضلاته مشدودة وقوية، أريده.

دفع الزبون الثري مبلغًا من المال.. وكان المبلغ المدفوع أعلى قيمة من السعر المطلوب.. فرح الشابندر لذلك وأعطاه فوق البيعه سوطًا فاخرًا صُنع من جلد الثور كهدية..

ورغم أن الصبي العبد انقاد لسيده بكل انصياع وذُل إلا أن السيد وبينما كان يسير وسط السوق ضربه بذلك السوط على ظهره كنوع من المرح والتسلية..

كانت ضربة قوية خلّفت مكانها جُرحًا سال منه الدم فبكى أيوب لشدة الألم.

اغتاظ السيد حين رأى عبده يبكي، وعاد يضربه وهو يصرخ عليه:

- صه أيها الحقير، أن العبد لا يبكي !!!

لكن أيوب لم يستطع أن يحبس دموعه.. فتوالت عليه الضربات أكثر وأكثر - والناس من حوله يضحكون ويشجعون - حتى فقد وعيه وسقط أرضًا..

جرّه سيده من ساقه - كما تُجر الشاة للذبح - وأعاده لخان الشابندر، قال وهو يرميه ويرمي السوط فوقه:

- رُدَّ مالي.

والشابندر يحاول فهم السبب:

- هل بدر منه ما يُسيء يا سيدي؟

- كنت أريده حارسًا لي حين يكبر، ولكن ما أن ضربته حتى بكى كالنساء.

تأسف الشابندر عدنان من ذلك الزبون وأعاد له كامل مبلغه وطلب منه أن يحتفظ بالسوط - فهو هدية والهدية لا تُرد - ثم ولكي يُطيّب خاطره فإنه التفت نحو عماله وقال لهم:

- أعيدوا العبد إلى قفصه، سوف نخصيه عندما يفيق..

غادر الزبون سعيدًا بما سمع، وكان يضحك وخلفه أتباعه يضحكون.

نهض أيوب ليلًا..

لم يأكل أو يشرب منذ مدة..

كان حلقه جافًا ومعدته خالية من الطعام وظهره يضج بالجروح، كان سيموت لا محالة فهو يائس وجائع وفيه حنين.. حنين لعائلته وقريته وأمه..

وبينما كانت أنفاسه تنطفئ شيئًا فشيئًا إذ امتدت إليه يد من بين فتحات قضبان القفص تحمل إليه قربة ماء باردة:

- اشرب.

أخذ أيوب القِربة وشرب منها - وكان حتى هذه اللحظة وهو يروي القصة لجومانا وتاج أسفل الشجرة، لا يزال بوسعه أن يتذكر كم كان طعم الماء لذيذًا جدًّا تلك الليلة - حين انتهى من الشرب قام ذلك الشخص الذي أعطاه القِربة بفك باب القفص وقال له:

- اتبعني.

سار أيوب خلف ذلك الشخص الغامض - وقد كان صبيًّا في مثل عمره تقريبًا - سار خلفه في الطرقات الترابية، تجاوز معه أزقة ومنازل كثيرة حتى توقف به أمام سور منزل كبير وقال له:

- افعل كما أفعل.

- وماذا سوف تفعل؟

- أتسلق السور

- ليس قبل أن تخبرني إلى أين تأخذني؟

- أأبدو لك كشخص يريد بك مكروهًا؟

- لا.

- اتبعني وأنت ساكت إذًا

تسلق ذلك الصبي الغامض السور وتسلق أيوب خلفه ثم هبطا إلى داخل الفناء، ورغم أن المنزل عليه حرّاس يحرسونه إلا أنهما تسللا دون أن يَلفتا انتباه أحد..

وعندما أصبحا داخل المنزل تذكر أيوب شيئًا:

- أنا اسمي أيوب، وأنت ما اسمك؟

- أهذا وقت للتعارف؟

- ألا يحق لي أن أعرف اسم الشخص الذي أتبعه على الأقل؟

- اسمي **الطفل**..

- ولكن هذا ليس اسمًا.

- ما رأيك أن نجمع أفراد المنزل، وأقص عليك وعليهم قصتي منذ البداية؟

كاد أيوب أن يقول شيئًا لكن الصبي الغامض ذاك - أو الطفل كما قال إنه اسمه - قطع عليه الطريق قائلًا:

- قلت لك اتبعني وأنت ساكت، ألا تعرف كيف تصمت؟

أغلق أيوب فمه بيده، وهزّ رأسه بعلامة موافق.

بهدوء الخفافيش.. تقدم الاثنان وانتقلا من غرفة لغرفة للبحث عن شيء ما - شيء لم يكن أيوب يعرفه - وظلا ينتقلان من غرفة إلى أخرى حتى عثر الطفل على ما كان يبحث عنه: " **سرير كبير كان ينام فوقه رجل وامرأة** "

كانت الغرفة مُعتمة ورغم ذلك إلا أن بصيص ضوء القمر المتسلل من النافذة ساعدهما على الرؤية

همس الطفل:

- انظر لذلك الرجل، هل عرفته؟

تأمل أيوب الرجل الممدد فوق السرير ثم قال:

- نعم، ولكن لماذا جئت بي إليه؟

- اصبر قليلًا وسترى..

كان الطفل يُخبئ سكينًا في جيبه، لكنه في المرحلة القادمة سيحتاج لسلاح آخر.. انحنى والتقط فردة حذائه ثم سار بها نحو السرير.

**

اتجه أولًا نحو المرأة..

أيقظها بهدوء - وقبل أن تستوعب ما يحدث - أغلق فمها بيده حتى لا تصرخ.. ثم ضربها بالحذاء على رأسها بقوة جعلتها تفقد وعيها..

وحين تخلص من أمرها، التفت نحو الرجل ولكزه..

استيقظ الرجل فزعًا وما أن اعتدل بجلسته حتى شعر بمخلوق صغير كالقرد يتعلق بظهره.. وبنصل سكين حاد يضغط على عُنقه وصوت هامس يهدده:

- سأقتلع حنجرتك إن صرخت..

كان الرجل يعلم أن ذلك المتعلق بظهره صبي صغير - وخمن من خلال صوته أن عمره لا يتجاوز عشر سنين - ولكن السكينة الموجهة إلى عنقه جعلته يتعامل مع الأمر بجدية تامة:

- أجئت تبحث عن المال أيها الفتى؟

- لا

- ماذا تريد إذًا؟

أشار له نحو الباب وقال:

- انظر هناك، إلى ذلك الفتى الواقف عند الباب

احتاج الرجل لبعض الوقت حتى يستطيع الرؤية في الظلام:

- نعم أراه، ما به؟

- تذكره؟

- نعم، إنه العبد الذي قمتُ بضربه اليوم في السوق.

- لقد أهنت كرامته، ولأجل هذا نحن هنا.

- أستطيع تعويضه بالمال حتى يرضى.

- كم عمرك أيها الزبون الثري؟

- ستون عامًا

- ألم تُعلمك الحياة بعد أن ثمّة أشياء لا يستطيع المال شراءها؟

- عندما تكبر أيها الصبي ستعرف أن المال يشتري كل شيء.

رد الطفل وقد قبل التحدي:

- لقد أهنته اليوم في السوق.. شاهدك الكثير وأنت تضربه، أخبرني عن الثمن الذي بظنّك قد يعيد إليه كرامته؟

صمت الزبون الثري ولم يعرف كيف يجيب، فقال الطفل:

- أنا أخبرك.. إنها تسع عشرة

- دينارًا من الذهب؟

- بل ضربة بالسوط؛ فهذا كان عدد ضرباتك له في السوق.

- لا تقل إنك تنوي الاقتصاص منّي؟

- أنا ؟! .. لا .. أيوب هو من سيقتصُّ منك.

- أوقف هذه المزحة السخيفة الآن أيها الفتى، وخذ صديقك وغادرا منزلي.

- أنا لا أمزح، ولكنها الحياة أيها الزبون الثري - وأردف يقول:

- ألم ترَ الحياة بعد؟ إنها دائرية وهذا يعني أن كل ما تفعله مع الآخرين يعود إليك باستمرار..

- صوتك يشي بأنك صغير، ورغم ذلك تتحدث بلسان رجل في السبعين من عمره.

- أنا لا عائلة لي أيها الزبون الثري.. أنا ربيب الطرقات والأزقة وأصدقاء السوء، وكان لسوء حظك اليوم أني كنت حاضرًا في السوق ورأيتك وأنت تضربه، فتبعتك حتى عرفت منزلك ثم جئت به إليك ليأخذ منك حقه..

- ولكنه عبد أسود وأنا سيد

- إنه إنسان، وأنت إنسان

- ولكن هناك فرق

قال الطفل وقد قبل التحدي الثاني:

- كلاكما خُلق من تراب، كلاكما حملته أمه في بطنها تسعة أشهر، كلاكما يجوع ويعطش ويبول ويحمل فضلاته في بطنه.. وفي نهاية الأمر كلاكما سيعود إلى التراب.. فأين الفرق الذي تتحدث عنه ؟!

أُلجم الزبون الثري ولم يعد يعرف كيف يرد.

قال الطفل آمرًا:

- أيوب تعال اربط أطرافه وكمم فمه كي لا يصرخ طالبًا النجدة.

اقترب أيوب منه، ولكن الزبون الثري قال محاولًا مواساته:

- أيها الصغير أنا أفهم شعورك، وأفهم ألمك..

قال أيوب قاطعًا عليه الطريق:

- من دواعي فهم الألم أن تجربه بنفسك - وأضاف وهو يربط أطرافه مستخدمًا ملاءات السرير:

- لن تفهم ألمي حتى تذوق مثله..

- ألا يكفي أن أتأسف لك؟

- سأدعك تجيب على هذا السؤال بعد أن أنتهي.

قال ذلك ثم كمم فمه.. وأمسك السوط - ذات السوط الذي ضُرب به في السوق - واستعد أن يضربه به.. ولكن الطفل في تلك اللحظة أوقفه وكأنما يُعطيه درسًا أخلاقيًا:

- يُقال يا أيوب إن العفو هو قمة الأخلاق، وإن القلب النظيف يدفع صاحبه دومًا للمغفرة للآخرين..

بدا الزبون الثري سعيدًا لما سمعه ولكن سعادته تلك لم تدم طويلًا حيث ابتسم الطفل بخبث وقال مواصلًا كلامه:

- ولكننا بلا أخلاق وقلوبنا ليست نظيفة - ثم أضاف آمرًا:

- اجلده يا أيوب..

**

عندما انتهى أيوب من الضربة التاسعة عشرة.. كان الدم ينزف من ظهر الزبون الثري ودموع الألم تتساقط من عينيه.. اقترب الطفل منه وقال:

- أنا وصديقي آسفان على ما فعلناه بك.

ثم أضاف ساخرًا وهو ينظر إلى ظهره:

- لقد تأسفنا لك ورغم ذلك لا زال جرحك ينزف، يبدو أن الأسف لا يوقف نزيف الدم ولا يُشفي الجروح أيها الزبون الثري.

شعر أيوب بالقوة وهو يركض مبتعدًا من ذلك المنزل.. شعر أنه محمي وعزيز نفس.. واستطاع أن يضحك من كل قلبه دون أن يكترث لحقيقة كونه بات مشردًا وبعيدًا عن عائلته وقريته..

كانا يعلمان أن الزبون الثري سوف يُرسل رجاله خلفهما؛ لذلك ابتعدا كثيرًا عن حدود منزله..

وحين حاصرهما التعب فإنهما تمددا فوق قطعة أرض فسيحة يُغطيها العشب الأخضر ونظرا نحو السماء وجعلا لساعات يتذكران تفاصيل المغامرة التي خاضاها قبل قليل ويضحكان عليها بصوت عالٍ وكأنهما اكتشفا سر الحياة مبكرًا وهو:

أنه ليس ثمّة ما يستحق أن يحزن المرء لأجله في هذا العالم.

انعطف أيوب نحو السؤال الذي كان يشغل باله منذ البداية:

- لماذا اسمك الطفل؟

- عندما كنت صغيرًا كان الناس يلقبونني بالطفل، فكبرت وظل الاسم ملازمًا لي حتى الآن..

- وعائلتك، أين هم؟

- رحلوا جميعًا.

- أين؟

صمت ولم يُجب؛ فعرف أيوب أنه لا يريد الحديث عن ذلك الأمر فقال متجاوزًا الموضوع:

- ما رأيك أن نجد لك اسمًا آخر؟

في الحقيقة كان الصبي قد تأقلم مع اسم " الطفل " ولكنه أُعجب بالاقتراح فقال:

- ماذا تقترح؟

- ما رأيك بـ ريحانة؟

- همم، جميل ولكنه يصلح لفتاة أكثر.

ابتسم أيوب بحنين وقال مفتخرًا:

- أنه اسم أمي

- ما معنى أن يكون لك أم؟

- معناه أن تكون دافئًا طوال الوقت.

في تلك الليلة فكر أيوب له بالكثير من الأسماء، فكانت إما مُضحكة وإما مخيفة.. إما جادة أكثر من اللازم وإما لا تصلح للاستخدام البشري وبعضها كان جميلًا ولكن الطفل لم يقتنع بها.

واستمرا يفعلان ذلك حتى سقط الاثنان في حُفرة النوم.

وبينما أيوب نائم إذ شاهد حُلمًا غريبًا: لقد كان يقف مع الطفل في المكان ذاته.. وفجأة زارهما في الحُلم شخص ما.. كان الزائر هو والدته ريحانة وقد كانت تحمل بين كفيها حليبًا ناصع البياض مدته نحو الطفل وقالت له:

- لقد أسقيت ابني، فاشرب.

اقترب الطفل منها وشرب الحليب وحين انتهى عانقته وقالت له:

- لقد أصبحت ابني.. و**بحر** سيكون اسمك، **والنار** ستكون قدرك ومن صُلبك يا بُني ستخرج ذرية عظيمة..

سألها أيوب في المنام:

- وأنا يا أمي، وأنا ماذا سيكون قدري؟

التفتت ريحانة نحو ابنها ابتسمت له بحنان وقالت:

- قدرك أن تحمي ذريته، وهكذا ستكون أختك من بعدك.

وقالت لهما أخيرًا قبل أن تختفي شيئًا فشيئًا:

- منذ هذه اللحظة، أنتما هيلانا واحدة.

ثم انتهى الحلم..

**

استيقظ أيوب من نومه والتفت نحو صديقه.. كان يريد أن يوقظه ويخبره بالحلم الذي رآه.. فوجده وقد كان مستيقظًا وعلى فمه بقايا من آثار حليب طازج فسأله بفزع:

- ما هذا الذي حول فمك؟

- إنه حليب.. أسقتني إياه والدتك من يديها في المنام.. وقالت إني أصبحت ابنها .. وبحر اسمي .. وقالت شيئًا لم أفهمه يا أيوب.

- النار قدرك، ومن صُلبك تخرج ذُرية عظيمة؟

- ما أدراك أنها قالت ذلك؟

- لقد كنت معك في ذات الحلم ورأيت كل شيء.

لقد كان بحر وأيوب في حُلم واحد، وهذا ما لم يستطع أحد منهما تفسيره..

ومنذ تلك الليلة أصبحا عائلة واحدة - أخ وأخ - وكانت الأرض منزلهما والسماء سقفهما، ولهما أم واحدة اسمها " **ريحانة** "

**

حين انتهى من رواية قصة لقائه ببحر كانت الشمس على وشك الغروب والليل بدأ يُسدل عباءته السوداء.. قال أيوب لتاج التي كانت تُنصت لقصته:

- لقد سألتِني يا سيدة تاج عمّا إذا كان صديقي يستحق كل هذه المجازفة أم لا، وأظنك قد عرفتِ الجواب.. إني وحق الرب على أتم الاستعداد لأجازف بحياتي كلها، ليس فقط لإنقاذ قدمه من البتر بل لأجل إنقاذ ظفره من الكسر إن تطلب الأمر.

لم تعتقد تاج أن يأتي عليها يوم وتُعجب فيه بأحد من الإنس.

ولكنها تعترف الآن لنفسها أنها أُعجبت بشخصية ذلك الشاب الذي اسمه " بحر " وأقرّت في نفسها أن شمائله تُشبه إلى حد كبير شمائل زوجها جبّار الأباطرة.

قالت وهي تنهض:

- استعدا، سوف ندخل منطقة أعشاش العنقاء.

١٢

داخل الكهف المهجور الآمن..

وبينما الحكيم يقف بمحاذاة أحد جدران الكهف الخارجية يستعد لقضاء حاجته، إذ فجأة أحس بنصل سيف يضغط على رقبته وصوت هامس يهدده:

- لقد قلتُ لك إنني سأقطع رأسك إذا زال مفعول الشراب ولم تُنجز مهمتك.

- ألم يكن بوسعك أن تنتظر قليلًا حتى أفرغ مما أنا فيه؟!!

- أين أيوب وتلك الفتاة، أين ذهبا؟؟

- سأخبرك ولكن لا تقتلني الآن.

- لن أقتلك إذا قلت الحقيقة

- جيد؛ فلا أريد أن يكتب التاريخ بأن الحكيم مات محشورًا.

- تكلم!!

- لقد ذهبا ليحضرا لك دموع العنقاء.

ورغم أن بحر كان يقف على قدم واحدة إلا أنه استطاع أن يرفع الحكيم بيده ويصرخ عليه:

- لماذا لم تمنعهما؟!!

- اسمع.. أنت تخيفني وهناك أشياء سوف تتسرب مني!!

أنزله بحر.. وراح يذرع المكان ذهابًا وإيابًا متخذًا من غِمد سيفه عكازَةً يتوكأ عليها..

قدّر الحكيم وهو يتأمله مدى الإرهاق الذي يُعاني منه: إنه مصاب بحمى شديدة، ورغم الطقس البارد إلا أنه يتعرق بغزارة.. لقد كان الموت كامنًا في قدمه ويهدد بتوسيع رقعته والانتشار في بقية أنحاء جسده ورغم ذلك كله إلا أنه لم يبالِ بنفسه أبدًا وكان خائفًا على سلامة أيوب وجومانا.

وتساءل الحكيم بينه وبين نفسه: لقد أعطيته مخدرًا ثقيل التركيب، كان من المفترض أن يجعله غائبًا عن الوعي لمدة يومين، فكيف نهض بهذه السرعة؟.. والحقيقة هي أن الحكيم كان محقًّا في تساؤله ذاك فمشروب نبتة الخشخاش الذي قدمه كان صحيح التركيب قوي المفعول ولكن الأمر الذي لم يحسب حسابه هو إدمان بحر على شرب الخمور ومسحوق بعض النبتات المخدرة وهذا ما جعل مفعول شراب نبتة الخشخاش يكون أقل تأثيرا عليه..

- اهدأ، كل شيء سيكون على ما يرام

- وما أدراك أن كل شيء سيكون على ما يرام؟!!

- لا أعرف، ولكن هذا ما يقولونه في مثل هذه المواقف.

- ألم يقل لك أيوب شيئًا؟

- قال إنه لا يقدم لك عذرًا؛ فالأصدقاء ليسوا بحاجة للاعتذار.

أدرك بحر أن أيوب لم يقل ذلك إلا وقد عقد العزم على القيام بمهمة انتحارية - إما أن يعود منها منتصرًا وإما ألّا يعود أبدًا - ولأجل ذلك كان عليه أن يتصرف ليُنقذه ويُنقذ جومانا من تهورهما..

أخذ سيفه ومد يده إلى الثومة - وهي نهاية مقبض السيف - وقام بفتحها إذ إنها كانت مصممة خصيصًا لتُفتح وتُغلق ثم أخرج منها ورقة صفراء صغيرة ملفوفة..

فتحها وقرأ منها طُلسمًا مكونًا من:

ثلاث عشرة كلمة بالإضافة إلى خمسة أحرف متفرّقة..

وما أن انتهى من قراءة الطُّلسم حتى احترقت الورقة في يده وتحولت لرماد طار مع الهواء.. نظر نحو الأفق بعينيه الحادتين كالموس ومكث على تلك الحالة لبعض الوقت وكأنه كان ينتظر قدوم شخص ما..



الباب الخامس

١

تحت أستار الليل البهيم يبدأ الثلاثة " **جومانا، تاج، أيوب** " بالتحرك من موقعهم.

كانوا يتسللون بحذر شديد حتى لا يُكتشف أمرهم..

واستطاعوا بمزيد من الجهد والصبر ومُحالفة الحظ أن يتوغلوا في الأرض متقدمين حتى وصلوا لمنطقة تستقر فيها أعشاش العنقاء..

**

كان الطقس باردًا للغاية وهناك نُدف من الثلج تتساقط عليهم؛ ورغم أن أغلب طيور العنقاء لم تعد إلى أعشاشها بعد إلا أن المكان بدا لهم مخيفًا وشديد الخطورة..

خطر ببال جومانا السؤال الذي رغم أهميته إلا أن أحدًا لم يسأله من قبل:

- كيف سنحصل على الدموع؟!

قال أيوب:

- معكِ حق؛ فحتى لو اختطفنا طائر عنقاء كيف سنجبره على إفراز الدموع لنا؟

كان الحل عند تاج التي قالت:

- العنقاء الأم

جومانا: ما بها ؟؟

- من خلالها سنحصل على الدموع.

- كيف؟

صمتت تاج ونظرت نحو أيوب وقد ارتسم على وجهها طيف ابتسامة شيطانية، وكأنها بتلك الابتسامة كانت تتحداه أن يعرف الإجابة فتكلم أيوب وقد قبل التحدي:

- نحطم بيض العنقاء الأم فتبكي عليه حزنًا ونحصل على الدموع.

بردة فعل طبيعية، هتفت جومانا بعصبية:

- مستحيل !!!

وتاج تطلب منها الهدوء:

- اخفضي صوتكِ كي لا يُكشف أمرنا، فيحطموا رؤوسنا ولا نجد من يبكي علينا..

همست جومانا بصوت خفيض:

- مستحيل، نحن لن نحطم بيض أم مسكينة !!

ادخلت تاج يدها إلى زنبيلها وأخرجت منه قنينة زجاجية صغيرة مدتها إلى ابنتها وقالت لها:

- خذي هذه يا ابنتي.. واذهبي بها إلى إحدى طيور العنقاء.. قولي لها يا خالة أمي تبعث إليكِ بسلامها وتطلب منك أن تعطيها بعضَ دموعك.

- لا تسخري مني يا أمي!!

- قلبكِ الضعيف هذا سوف يجرنا إلى المهالك

- قلت لا يعني لا..

- يا ابنتي لا يوجد هنا متجر لبيع الدموع، فإما هذه الطريقة وإلا لن نحصل عليها أبدًا.

- لا بد أن يكون هناك حل آخر..

- حسنًا، لن نحطم كل البيض سنحطم بيضة واحدة فقط.

صمتت جومانا.. فكان صمتها ذاك بمثابة الموافقة

**

كانت الأعشاش كثيرة وكان من الصعب عليهم التنقل من عُش لآخر بحثًا عن العُش الذي يحتوي البيض وهذا ما جعل أيوب يتساءل:

- أي واحد سنختار؟

قالت تاج مستندة على القصص والمعلومات التي تعرفها عن المنطقة:

- هذه البقعة شديدة البرودة .. والبرد الشديد لا يساعد أفراخ العنقاء على الفقس من البيض؛ لذلك تلجأ الأمهات لإشعال النار بالقرب من أعشاشها.

كان أيوب بالفعل عندما وصلوا إلى هناك قد لاحظ بعض الأعشاش التي تشتعل النيران بالقرب منها.. لم يجد آنذاك تفسيرًا منطقيًا لتلك الظاهرة السلوكية الغريبة لكنه الآن فهم السبب..

كانت كل الأعشاش متجاورة وقريبة بعضها من بعض إلا واحدًا كان يوجد في منطقة بعيدة بعض الشيء وكانت النار تشتعل بالقرب منه، قالت تاج وهي تشير نحوه:

- ذلك العُش الوحيد هناك، فإذا كُشف أمرنا تكون فرصتنا في الهرب أكبر.

**

تسلل الثلاثة إليه..

كان العُش كبيرًا وليس كما بدا لهم عندما كانوا ينظرون إليه من بعيد، تسلّقه أيوب وحين أصبح بداخله قال يُعلن لهم ما وجده:

- ثمّة بيضة واحدة فقط.

قالت جومانا:

- دعها، سوف نذهب لعُش آخر..

قالت تاج معترضة: ليس أمامنا وقت كافٍ لهذا؛ ستعود الطيور في أي وقت - ثم أضافت تُعطيه الأمر بصفتها القائد:

- حطمها.. حطمها الآن..

استلَّ أيوب سيفه من غمده وهمَّ بإحداث شرخ بالغ في قِشرتها، ولكن جومانا أوقفته:

- لحظة، لماذا لا نخبئها؟

تاج بغضب:

- وحين تأتي الأم نفاجئها بها ثم تبكي فرحًا، ونأخذ دموعها أليس كذلك ؟!!

- افهمي فكرتي أولًا يا أمي

- لا وقت لدينا للأفكار.. ونحن لم نأتِ هنا لنلعب.. حطمها !!

- سأصرخ وأفضح أمركما إن حطمتماها !!

- نحن فريق واحد أيتها البلهاء !!

- طالما أننا فريق واحد، فاسمعي فكرتي إذًا

قالت تاج يائسة من ابنتها:

- أحيانًا أتساءل عن نوع الحذاء الذي سنعثر عليه لو أننا قمنا بفتح رأسك يا جومانا.. قولي الفكرة بسرعة وأريحينا !!

- نخبئها فإذا جاءت الأم ولم تجد بيضتها بكت عليها فنحصل على الدموع.. ثم نُعيد إليها بيضتها بعد ذلك ونرحل.. وبهذه الطريقة لا أحد يتأذى..

صمتت تاج تقلب الفكرة في رأسها، وعندما لم تجد ما تقوله فإنها نظرت إلى أيوب وكأنها بتلك النظرة كانت تطلب منه المشورة، قال أيوب:

- أعتقد أن الفكرة سوف تنجح.

- أرجوكِ وافقي يا أمي، أرجوكِ، أرجوكِ!!

متأففة قالت:

- هات البيضة أُخبئها عندي، ولنبتعد من هنا قبل عودة الأم.

أخذت تاج البيضة من يد أيوب وخبأتها داخل الزنبيل الجلدي الذي كانت تلفه حول خاصرتها ثم تسلقوا شجرة قريبة من هناك كبيرة واختبؤوا وسطها..



حبسوا أنفاسهم وأخذوا يترقبون ما سيحدث..

وبعد قليل جاءت الأم - الطائر العنقاء - وهبطت إلى عُشها.

**

ولأنه لم يكن لديها إلا بيضة واحدة؛ فإنها انتبهت سريعًا لاختفائها وبدأت تفتش عنها حول العُش لربما سقطت خارجه لأي سبب، وعندما لم تجد شيئًا طارت في الهواء وجعلت تحوم وتبحث من عليائها ولكن دون فائدة.

عادت في النهاية إلى عُشها كسيرة الفؤاد..

لم يكن بمقدورها أن تصنع شيئًا حيال خسارتها فبكت - كما تبكي بعض الطيور - ونامت ودموعها مُعلقة على أهداب عينيها..

**

داخل الشجرة.. مدت تاج القنينة لأيوب وهمست له:

- هذه فرصتك...

تدخلت جومانا:

- أنا سأذهب معه أيضًا..

اعترضت والدتها خوفًا عليها من الأذى:

- أنتِ لا، هو سيذهب وحده.

كانت تريد الذهاب لأنها ترى أنها السبب في كل ما حدث لبحر وتشعر بأن المخاطرة مسؤوليتها هي وليست مسؤولية أيوب أو أي شخص آخر.. ولكنها تعلم أن والدتها لن تقتنع بذلك الكلام وأنها بحاجة لسبب مقنع فقالت:

- عُش العنقاء مكوّن من أغصان بعضها قوي وبعضها هشّ، والذي سيتسلل إليه يجب أن يكون خفيف الوزن حتى لا تتهشم الأغصان الهشّة تحت أقدامه فتستيقظ الأم..

قال أيوب وقد اقتنع بالسبب:

- ابنتكِ معها حق.

كانت تاج تعرف أن ابنتها لن تتنازل عن فكرة وضعتها في رأسها؛ فأعطتها القنينة وقالت:

- كوني حذرة، وإذا انكشف الأمر فسنلغي الخطة ونهرب.

**

نزلا من الشجرة وتسللا نحو العُش،

بينما بقيت تاج وحدها مع البيضة المسروقة وسط تلك الشجرة..

حين وصلا إليه - إلى العُش - حرر أيوب حزام سيفه المعقود حول خصره وربطه حول خصرها ثم همس لها بصوت خفيض بالكاد يُسمع:

- أتمنى ألّا تضطري لاستخدامه..

كانت جومانا تعلم أن الوقت لم يكن مناسبًا، لكنها ألقت بما كان يجول في خاطرها:

- لماذا كذبت عليه؟.. لماذا أخفيت عنه حقيقة أنني جنية؟

- إنه يكره الجن؛ لذلك من الأفضل ألّا يعرف الحقيقة.

- لماذا يكرهنا؟

- قصة قديمة، ولا وقت لذكرها الآن.. ولكن كما قلت لك.. إنه يكره الجن أشد الكره.. ولو عرف حقيقة أصلك فلستُ متأكدًا مما سيفعله.

- أخاف أن يخبره الحكيم

- لا تقلقِي، لقد طلبت منه ألّا يفعل - ثم أضاف قائلًا:

- هيا، يجب أن نسرع..

بدون قوتها الخاصة كانت جومانا بحاجة للمساعدة كي تتسلق سور العُش، لذلك قام أيوب بمشابكة يديه لها فوضعت قدمها عند مُلتقى اليدين وارتفعت..

وحين أصبحت في الداخل: سارت بحذر شديد نحو الأم.

وعندما اقتربت منها أحسّت بالتوتر والرهبة؛ فقد كان حجم العنقاء مقاربًا لحجم حصان بالغ – أو أقل منه بقليل – وهذا الحجم يعد كبيرًا جدًّا بالنسبة لكونها طائر.

وربما كان ذلك التوتر وتلك الرهبة هما السبب الذي جعلها تفقد تركيزها وتطأ بقدمها عن طريق الخطأ على غُصن هش ليتفرقع تحت قدمها وتفتح الأم عينيها..

٢

فتحت الأم عينيها..

ولكنها حين نظرت أمامها لم تجد أحدًا..

فاعتقدت أنها تتوهم وحين التفتت - **يسارًا** - نحو مكان بيضتها وجدته فارغًا فتذكرت خسارتها.. فاحتشدت الدموع في عينيها مرة أخرى وعادت للنوم.

كان لحسن الحظ أن أيوب سارع بالتمدد أرضًا فلم تنتبه عليه وكان لحسن الحظ أيضًا أن جومانا اختبأت خلفها.. ولو أن العنقاء التفتت يمينًا بعض الشيء لكانت رأتها..

**

انتظرت جومانا قليلًا ريثما تأكددت من أنها غاصت في النوم مجددًا ثم اقتربت منها - ولكن بحذر أكبر هذه المرة - مدت القنينة إلى عينها بخفة شديدة وحصلت على بعض قطرات دموعها..

ورغم فرحها الشديد إلا أنها كانت مُتمسكة بكامل حذرها..

سارت بهدوء نحو حافة العُش - حيث أيوب ينتظرها - وكانت تفكر مئة مرة قبل أن تطأ بقدمها موضعًا جديدًا .. وحين وصلت إلى الحافة مدَّ أيوب لها يده ليُساعدها على النزول..

سار كل شيء على ما يرام..

ولكنها بينما كانت تنزل لم تنتبه للغصن الذي تعلّق بثيابها من الخلف..

وما أن لمست الأرض بقدميها حتى كان عود الغصن العالق في ثيابها قد انثنى أكثر مما تسمح به مرونته فانكسر مُحدثًا فرقعة عالية..

استيقظت الأم مجددًا..

**

لم يكن لديهما مكان يختبئان وراءه هذه المرة..

لقد كانا هدفًا مكشوفًا لأنثى العنقاء الغاضبة التي قررت الهجوم عليهما..

هتف أيوب:

- أعطيني السيف بسرعة!!

استلّت جومانا السيف لتعطيه إياه إلا أن الهجمة الأولى للعنقاء الأم كانت بهدف تجريد أعدائها من السلاح؛ فهاجمت السيف بمنقارها وألقت به بعيدًا..

ثم حامت في الجو بسرعة مذهلة وانقضّت نحو جومانا أولًا - فهي التي كانت داخل العُش - ولكن قبل أن تصل إليها وتفتك بها تدخلت تاج بأن صاحت:

- أهذا ما تبحثين عنه؟!!

أوقفت العنقاء هجمتها بعد أن رأت البيضة..

- أعلم أنكِ غاضبة أيتها الأم؛ فأنا أم مثلكِ وأتفهم شعورك - ثم أردفت تقول بكلمات مُعززة بلُغة الإشارة: أعيد لكِ بيضتك بشرط أن تدعينا نذهب بسلام..

بطبيعة الأمر لم تفهم العنقاء تلك الكلمات ولكن قلبها أحسَّ بمعناها، فعادت إلى عُشها وكأنها بذلك السلوك المسالم تقول بأنها موافقة على الاتفاق.

تقدمت تاج..

تسلقت العُش - بمساعدة أيوب - وأعادت البيضة مكانها ثم انسحبت من هناك وهي تقول:

- جومانا، أيوب لنغادر هذا المكان بسرعة.

غادر ثلاثتهم المكان ولم تنسَ جومانا بالطبع أن تلتقط السيف الذي طار من يدها وتُعيده إلى غِمده المعقود حول خصرها..

ولكنهم قبل أن يبتعدوا من هناك كثيراً.. زأرت العنقاء الأم بصوت عالٍ مخيف جعل ثلاثتهم يلتفتون للخلف في دهشة وذهول.. وحين التفتوا رأوها وهي قادمة بغضب نحوهم..



جومانا: ما بها؟

تاج: لستُ متأكدة ولكن يبدو أنها قادمة لتدعونا للبقاء من أجل تناول وجبة العشاء، أنتِ لا تعرفين كم هي طيور العنقاء طيبة وكريمة يا بُنيتي.

جومانا وقد أدركت خطورة الوضع: ماذا سنفعل؟!!

تاج تواصل سخريتها من المصيبة القادمة: سنقول لها أننا مرتبطون بموعد آخر.. وسوف تتركنا وترحل .. فأنتِ لا تعرفين كم هي طيور العنقاء متفهمة ولطيفة يا بُنيتي.

أيوب وهو ينظر إلى السماء ويرصد بدء احتشاد طيور العنقاء:

- لديَّ خطة رهيبة..

جومانا وتاج بصوت واحد: أنجدنا بها !!

- اهربوا !!!

لم تكن أمامهم فرصة للنجاة ركضًا؛ فمهما بلغت سرعتهم على الأرض إلا أن طيور العنقاء كانت ستصطادهم من الجو بكل سهولة، ولكن الخيول الثلاثة للأباطرة تدخلت في الوقت المناسب..

ثم بدأت المطاردة..

**

كانت طيور العنقاء أسرع؛ فأجسادها تُعد أقل حجمًا من الأحصنة المجنحة.. وكانت تطير بخفة دون حمولة فوقها.. وكان الغضب يضاعف من سرعتها..

ولكن تلك الخيول الثلاثة كانت تملك ميزة أهم من السرعة وهي أنها قد تلقت تدريباتها من قِبل عائلة الأباطرة.. وكانت لكثرة خوضها المعارك تملك نفسًا أطول وتجيد فن المراوغة..

**

استطاعت خيول الأباطرة أن تصمد في المطاردة..

وحين اقتربوا من مغادرة المجال الجوي لأرض العنقاء، صاحت تاج تُبشر بالخلاص:

- العنقاء لا تغادر حدود أرضها؛ لقد اقتربنا من النجاة !!

ولكن في تلك اللحظة استطاع أحد الطيور أن ينقض على الحصان عريق الذي كان يحمل جومانا..

فقام الحصان عريق وبشكل مفاجئ بالالتفاف حول نفسه ليراوغ الهجمة..

وأثناء تلك المراوغة حدث ما لم يكن أحد يتوقعه:

لقد سقطت قنينة الدموع من حزام جومانا..

حاولت التقاطها ولكنها أفلتت من يدها ولم تستطع الإمساك بها، فتهاوت القنينة نحو الأرض..

كانوا قريبين جدًّا من الخروج.. لكن جومانا ودون تفكير شدت لجام حصانها عريق وعادت به للوراء:

لقد جاءت للحصول على تلك الدموع

فإما أن تعود بها وإما ألّا تعود..

**

حاول كل من تاج وأيوب العودة لنجدتها لكنهما لم يتمكنا من فعل ذلك؛ وهذا لأن بعض طيور العنقاء كانوا قد شكلوا رادعًا جويًّا يمنعهما من الدخول..

في تلك اللحظة أدركت تاج أن لا أمل لابنتها في الحياة.

٣

كان جيش من الموت يُطاردها ولكنها انطلقت فوق حصانها دون حساب للعواقب؛ انطلقت مثل سهم يُهمه أن يُصيب الهدف ولا يكترث أن يتحطم بعد ذلك أو يتكسر..

**

استطاع الحصان عريق أن يناور ويختفي عن مجال رؤيتهم لبعض الوقت ثم هبط بها نحو البقعة التي قدّر أن قنينة الدموع قد استقرّت فيها..

بحثت جومانا بين الأعشاب حتى وجدت ما كانت تبحث عنه..

لكن قنينة الزجاج كانت محطمة وفارغة من الدموع..

**

كانت ستبكي قهرًا حينها..

ولكنها سمعت شيئًا جعلها تؤجل موضوع البكاء لوقت آخر؛ فقد سمعت خفقات أجنحة قوية آتية من الأعلى وحين رفعت رأسها شاهدت السماء وقد امتلأت بأسراب العنقاء..

بقيت الطيور تحوم في الجو فيما يُشبه الحلقة الكبيرة.. كانت تقوم بذلك السلوك لتبرهن من خلاله للدخلاء أنهم أسياد المكان وأن لا أحد ينبغي عليه تحدي العنقاء.

صهل عريق وضرب الأرض بقدميه..

لم يكن الحصان خائفًا أو يطلب من سيدته الهرب؛ فهو يعلم أن طيور العنقاء قد فرضت سيادة جوية كاملة على المنطقة وأن لا مجال له أو لفارسته بالنجاة.

إنما كان عريق يطلب من سيدته بذلك الصهيل أن تمنحه الشرف؛ فأحصنة الأباطرة عار عليها أن تموت بيد الأعداء وشرفها أن تموت بيد أسيادها..

استلّت جومانا السيف المعقود حول خاصرتها - السيف الذي أعطاها أيوب - ثم سددت له طعنة محكمة في رقبته كي تضمن أن يموت دون أن يتعذب وهمست له:

- شكرًا لخدمتك.

سقط عريق على قدميه الأماميتين وكأنه يؤدي لها الانحناءة الأخيرة، ثم أنهار جسده..

رفعت جومانا رأسها للأعلى تنظر نحو طيور العنقاء.. كانت تعلم أنها النهاية ولكن المرأة حين تُفرض عليها النهاية فإنها تختار أن تخوضها بشجاعة..

شهرت السيف نحوهم وصاحت:

- تعالوا !!!!

انقضت طيور العنقاء عليها وكأنها استجابت لندائها..

كان أيوب وتاج بعيدين عنها..

وجبّار لا يعلم شيئًا بشأن تورطها..

ولا أحد من أفراد الأباطرة حولها ليُنجدها..

لقد كان الموت محتومًا عليها..

ورغم كل ذلك ابتسمت..

ابتسمت لأنها رأت من جاء ليُنقذها..

بحر.. لقد جاء بحر لأجلها..

كان يُحلق فوق طيور العنقاء ممتطيًا ظهر مخلوق غريب: أنثى فاتنة نصفها الأسفل حصان ولها جذع ورأس إنسان، وتملك أربعة من الأجنحة الطويلة البيضاء:

إنها أميرة قبيلة الأشاوس، الأميرة " آشاس "

ورغم أنهما وصلا في اللحظة التي كانت فيها طيور العنقاء في منتصف طريقها نحو جومانا، إلا أن آشاس وبأمر من بحر انطلقت بسرعة مقاربة لسرعة البرق لتنقذها..

٤

حلّقت الأميرة آشاس مبتعدة بهما من هناك..

كان بحر صامتًا طوال الوقت؛ فاعتقدت جومانا أن صمته ذاك يعود لغضبه عليها بسبب عدم إطاعتها أمره.. فسألت - وكان قصدها بالسؤال - أن تفتح حوارًا معه:

- كيف عرفت أنني داخل أرض العنقاء؟

لم يرد عليها وبقي سؤالها مُعلقًا، فأجابتها الأميرة آشاس كي تجنبها الحرج:

- التقينا بوالدتك وأيوب وهما اللذان أخبرانا بالأمر..

أدركت جومانا من خلال تجاهله الرد عليها أنه غاضب منها..

لكنها بعد قليل قررت أن تحاول مرة أخرى:

- هل جاء الحكيم برفقتك؟

تجاهلها أيضًا، فأجابتها الأميرة آشاس:

- نعم لقد جاء الحكيم برفقتنا، ولكنه عاد معهما للكهف..

- وهل مرّ لقاؤه بوالدتي بخير؟

- لا، لقد كادت والدتك أن تقتله..

لقد نشب الخلاف بينهما حين صعد الحكيم خلف تاج على متن حصانها وتشبث بها من المكان الخطأ.. تاج أصرّت أنه فعل ذلك عمدًا بينما الحكيم قال إنه كان يريد أن يتشبث بها من بطنها لكن يديه ارتفعتا قليلًا عن غير قصد وجاءت في المكان الخطأ..

دارت بينهما مشادة كلامية تخللها الكثير من السِّباب والشتائم، حتى فصل أيوب بينهما:

- اصعد معي أيها الحكيم.

كان السبب في عدم صعود الحكيم خلف أيوب منذ البداية هو أن أيوب لم يكن معتادًا على ركوب الأحصنة المجنحة فكان من الصعب عليه أن يُردف أحدًا خلفه..

قال الحكيم حينها:

- أأنت واثق من أننا لن نسقط من السماء، فأنا لا أجيد الطيران

- صدقني أيها الحكيم.. أن تموت مرتطمًا بالأرض خير لك من أن تموت على يد تاج..

اقتنع الحكيم بما قاله أيوب وصعد خلفه..

أوقفت جومانا محاولات فتح الحوار مع بحر، والتزمت الصمت..

وبينما ظلت الأميرة آشاس تحلق مبتعدة بهما إذ مرّت في طريقها من فوق بعض قمم الجبال.. وهذا ما جعل جسدها يهتزّ قليلًا بسبب التيارات الهوائية..

كان اختلالًا طفيفًا يحدث لكل الأجسام الطائرة ولكن ذلك الاهتزاز هو ما كشف الحقيقة؛ فبسببه كاد بحر أن يسقط من على متنها ولكن جومانا انتبهت عليه وأمسكته قبل أن يهوي..

لتكتشف أن صمته ذاك لم يكن بسبب غضبه عليها بل بسبب مرضه الشديد الذي جعله أشبه بالغائب عن الوعي؛ فقد بذل بذهابه إلى أرض العنقاء مجهودًا عاليًا ما كان ينبغي عليه بذله وهو بتلك الحالة الصحية السيئة..

صاحت جومانا:

- خذينا للكهف، يجب أن يراه الحكيم بسرعة !!!

٥

ليلًا..

وفي الكهف المهجور الآمن.. وبينما الجميع كانوا حاضرين هناك قال الحكيم بنبرة صوت آسفة بعد انتهائه من فحص بحر:

- لا فائدة سيموت..

تدخل أيوب:

- تصرف، جِد لنا حلًّا..

- لا فائدة.. لقد انتشر الموت في جسده وانتهى الأمر، وليس أمامكم حل إلا أن تعودوا بالزمن للوراء وتصغوا إلى كلامي عندما كنت أقترح أن نبتر قدمه..

هتفت جومانا:

- نذهب مرة أخرى لأرض العنقاء و..

قاطعها الحكيم: لن يكون أمامكِ وقت لذلك، سوف يموت وأنتم في منتصف الطريق إلى هناك.

قال أيوب:

- الأميرة آشاس سريعة وتستطيع اختصار وقت المسافة

أعلنت الأميرة آشاس موافقتها:

- لقد قدمت أنت وبحر لنا ذات يوم معروفًا لن ننساه.. وأنا مستعدة لخدمتك وخدمته..

للحظة شعر الجميع بالأمل ولكن تاج صدمتهم بالواقع:

- طيور العنقاء غاضبة الآن.. ولن يكون الدخول لأرضهم أمرًا سهلًا، وحتى لو استطعتِ الدخول يا آشاس فإن عملية إحضار الدموع سوف تستغرق وقتًا طويلًا..

عند هذه النقطة آمن الجميع بحتمية موت بحر، ورأت الأميرة آشاس أنه لم يعد ثمّة داعٍ لوجودها هناك فتقدمت نحو أيوب وقالت له بنبرة صوت عزائية:

- آسفة لخسارتك، وخسارتنا.

- كل المصائب التي مررتُ بها في الحياة تبدو سخيفة أمام هذه.

- كنت أتمنى لو أن لديّ ما أستطيع تقديمه له يا أيوب..

- لقد بذلتِ ما تستطيعين، شكرًا لكِ.

ورغم ما فيه من حزن إلا أنه لم يتخلَّ عن آداب اللياقة، ورافق الأميرة لخارج الكهف، ثم قال يودعها:

- رافقتكِ السلامة أيتها الأميرة.

- لقد استخدمتما الورقات الثلاث التي أعطيناكم إياها لتحضيرنا عند الحاجة، ورغم استنفادكم لها إلا أننا سنخدمك دائمًا يا أيوب وسنرحب بك بيننا..

قالت ذلك ثم غادرت..

**

داخل الكهف:

كانت جومانا تُسند رأسها إلى الحائط وتراجع نفسها، سوف تكون هذه هي المرة الثانية التي يموت فيها أحدهم بسببها.. إنها تشعر بأنها لن تكون قادرة على مسامحة نفسها، وتشعر بأنها سيئة جدًّا.

في تلك اللحظة يقترب منها الحكيم..

كان يريد انتشالها من الحزن؛ هو رجل ذو نية طيبة ويحب مساعدة الآخرين ولكنه مثل شجرة الصبار كلما اقترب من شخص ليحتويه كان عن غير قصد يؤذيه بشوك لسانه.

جلس بالقرب منها.. مد يده ومسح عنها دموعها - وكانت تلك حركة جيدة لو أنه اكتفى بها - ولكنه فكر أن يستخدم لسانه:

- ما رأيكِ أن نتزوج؟

- ألا تكفي المصائب التي أنا فيها؟

- لديّ الكثير من كلام الغزل الذي سوف يُنسيك كل مصائبك، أستطيع أن أُسمعكِ بعضه الآن لتتأكدي.

لاذت بالصمت علّه يرحل عنها، ولكنه فسر صمتها ذاك على أنه علامة موافقة فقال يُخيرها:

- تُفضلين الغزل الفاحش أم العفيف؟

- أفضل الصمت، ألديك منه؟

- لديَّ حركات غزل صامتة إذا أردتِ، تفضلين العفيف منها أم الجريء؟

- أريد أن أراك وأنت تجري إلى خارج هذا الكهف..

كاد أن يقول شيئًا لكنها حذرته:

- أيها الحكيم، إن لم تتركني وشأني الآن فسأدع الآخرين يقولون إن جنية قتلت إنسانًا بسبب لسانه الطويل.

- حسنًا، ولكن أريدك أن تفهمي أنني إذا غادرت الكهف فإن عرض الزواج ملغىً

- غادر بسرعة إذًا..

نهض واقفًا، وقال قبل أن يغادر:

- أعرف أن الوقت غير مناسب، ولكن ماذا بشأن الثمن الذي وعدتني به؟

- الأمر يحتاج لبعض الوقت - وأضافت تبرر له:

- فالكتاب وقطعة الذهب يوجدان في خزائن العائلة، وهناك من يحرسها..

استدار الحكيم وانصرف وهو يقول:

- احذري أن يراكِ الحرّاس فيلحقوا بكِ؛ فبحر لن يستطيع إنقاذك هذه المرة..

كانت تلك الجملة التي قالها الحكيم بمثابة ومضة برق لمعت في ذهنها، لقد لفت الحكيم نظرها لأمر هام جدًّا فقالت:

- توقف، لحظة!!

توقف الحكيم واستدار نحوها:

- كنت أعلم أنكِ لن تفوتي على نفسك العرض!!

- أخبرني أيها الحكيم لماذا سيلحق بي الحراس؟

- لأنكِ سرقتِ حاجتهم

- وإذا أعدتُ لهم حاجتهم فماذا سيحدث؟

- سوف يتوقفون عن مطاردتك

- ثم إذا اكتشفوا أنني خدعتهم ولم أُعد تلك الحاجة؟؟

- سيعودون لمطاردتك، وربما يُبلغون عليكِ بقية أفراد العائلة.

- لماذا؟

- لأنكِ حمقاء، وغباؤك هذا سيجعلني أصرف النظر عنكِ!!

- أجبني، لماذا سيطاردونني؟

متأففًا:

- لأنكِ سرقتِ حاجتهم!!

وهنا اكتشفت جومانا الخدعة التي حدثت أمام عينيها ولم تنتبه لها..

هتفت بفرحة:

- لقد وجدت الحل!!

ثم نهضت من مكانها وأمسكته من ملابسه وصاحت:

- يبدو أنك بدأت تُعجبني أيها الحكيم!!

كاد أن يقول شيئًا، لكنها لم تُعطه الفرصة

واختفت به من هناك..

٦

ظهرت به في القلعة - قلعة الأباطرة - وتحديدًا في حُجرتها..

كان قد اعتاد على الانتقال السريع ولذلك فإنه لم يشعر بالدوار هذه المرة..

قال وهو يتقدم نحو عُمق الحُجرة:

- يبدو أنكم يا بني الجن لا تملكون حلًّا وسطًا..

- أيها الحكيم، اذهب إلى خزانة ملابسي

- خزانة الملابس؟

- نعم

- لماذا؟

- سأقوم باستدعاء والدتي.

- هل ستشرف والدتك علينا؟!!

- أيها الحكيم إلى أين شطح بك عقلك؟!!

- الزواج؟!

أرسلت إليه نظرة حادة، فقال وقد خاف منها:

- وأين خزانة ملابسك؟

**

بعد أن دخل الحكيم خزانة الملابس أدت جومانا طقوس الاستدعاء ونادت والدتها..

وبينما كانت تنتظر قدومها إذ فتح الحكيم باب الخزانة وقال لها:

- أأستطيع الذهاب للخلاء؟.. أريد قضاء حاجتي!!

- لماذا لم تخبرني من قبل؟!!

- إنها أشياء تأتي فجأة ولا نُخطط لها..

- لا وقت لدينا .. تماسك .. فقد استدعيتُ والدتي، وستأتي الآن في أي لحظة.

- بخصوص والدتك.. أُقسم لكِ أنني لم أقصد التحرش بها

لقد كان صادقًا في ذلك، وأحسّت بصدقه فقالت:

- أنا أُصدقك..

- حقًّا؟

- نعم، فأنت لسانك طويل فقط ولكنك لا تفعل شيئًا..

- لا أدري إن كانت هذه ذمة أم مدحة، ولكن شكرًا لأنكِ صدقتِني.

ثم أضاف قائلًا:

- هل أستطيع أن أُبدي رأيي تجاه والدتك دون زعل؟

- قل، ولكن بسرعة

- إنها امرأة كريهة و..

استشعرت جومانا قدوم والدتها فأمرت الحكيم:

- أخبرني عن رأيك بها لاحقًا، والآن ادخل الخزانة لقد وصلت..

**

ظهرت تاج في الحُجرة وكان أول ما قالته هو:

- هل مات بحر؟

- لا

ابتسمت وهي تتقدم بخطوات واثقة وتجلس فوق طرف السرير:

- على أيوب والحكيم ألّا يحزنا كثيرًا على موته؛ فهما سيلحقان به قريبًا.

- ماذا تقصدين؟

- أقصد أنهما عرفا الكثير ويجب قتلهما..

- أنتِ لا تتحدثين إلا عن القتل وسفك الدماء..

- إنه القانون

- ولكنني أنا التي كشفت نفسي لهما.

- ماذا تعنين؟

- أعني أنكِ إذا أردتِ تنفيذ القانون، فأنا المذنبة وليس هما..

قالت تاج تسوّي الأمر مع ابنتها:

- ربما أغضُّ الطرف عن أيوب فيبدو أنه قادر على كتم السر ولكن الحكيم لا؛ فهو صاحب لسان طويل.

ثم أردفت بتلذذ تشرح خطتها في قتله:

- سأُدخل يدي في فمه وحين أُخرجها سأكون قد انتزعتُ قلبه من مكانه، ولكن لا تقلقِي سأجعل كل ذلك يحدث بسرعة حتى لا يتألم كثيرًا..

وفي تلك اللحظة تفوح رائحة غريبة في الحُجرة استطاعت تاج أن ترصدها بأنفها - إنها رائحة أمونيا - فقد خاف الحكيم من ذلك الكلام الذي سمعه؛ ولم يعد قادرًا على أن يمسك نفسه.

لقد افتُضِح أمره ولم يعد بإمكان جومانا أن تخبئه أكثر من ذلك؛ فقالت:

- اخرج أيها الحكيم، لقد كُشف أمرك ولا داعي للاختباء.

لم يخرج وبقي مختبئًا مكانه،

فذهبت تاج وفتحت عليه باب الخزانة..

٧

قال متفاجئًا حين رآها وكأنه التقاها صدفة في مكان عام:

- تخيلي أننا كنا نتحدث عنكِ قبل قليل، وقد عبرت عن رأيي فيكِ بكل صراحة، قلت لها كم أنتِ امرأة محبوبة جدًّا ولطيفة.. وما سمعته للتو يؤكد صحة كلامي.. لقد سمعتكِ تقولين إنكِ سوف تنتزعين قلبي بسرعة حتى لا أشعر بالألم وهذا يُثبت كم أنتِ حنونٌ ورحيمة !!

التفتت تاج بغضب نحو ابنتها وقالت:

- هذه المرة الثانية التي يدخل فيها إنسي قلعة الأباطرة، ألهذه الدرجة بات حِمانا مستباحًا ؟!!

سددت تاج إليه ضربة لتقتله ولكنه اختفى من مكانه قبل أن تصل إليه يدها، وحين ظهر بعد لحظة كانت جومانا تقف أمامه وتجعل من جسدها درعًا له:

- لن أسمح لكِ بأذية شخص أعرفه..

- لماذا جئتِ به إلى قلعتنا؟

- هذه ليست قلعتكِ، لقد طردكِ والدي منها وأنتِ هنا الآن لأنني أسمح لكِ بذلك..

ابتلعت تاج الإهانة وأعادت صياغة السؤال:

- لماذا هو هنا؟

- هو هنا ليساعدني في أخذ دموع العنقاء

- دموع العنقاء؟؟

- نعم دموع العنقاء، ما بكِ متعجبة؟!

- لأني لا أفهمكِ!!

- بل تفهمينني جيدًا - ثم ألقت بسؤال يحمل اتهامًا خطيرًا:

- لماذا قامت العنقاء الأم بمطاردتنا مع أنكِ أعطيتِها البيضة؟

أجابت تاج ببرود:

- لا أعرف السبب، لماذا لا تذهبين وتسألينها بنفسك؟

- لا داعي لأن أذهب وأسألها؛ فأنا أعرف الإجابة

- ما الذي يدور في رأسك؟

- **لقد سرقتِ بيضتها..**

- ما الذي تقولينه؟.. لقد أعطيتها البيضة أمامك وأمام أيوب..

تدخل الحكيم محاولًا بشهادة الزور أن يكسب رضاها:

- نعم وأنا رأيتُ ذلك بعيني..

التفتت جومانا إليه:

- أتحب أن أتركك معها وأرحل؟

- لا أرجوكِ؛ لا أريدها أن تُدخل يدها في فمي!!

- اصمت إذًا ولا تتدخل، فأنت لم تكن هناك لترى شيئًا..

ثم عادت تلتفت نحو والدتها وتقول:

- لقد أعطيتِها البيضة صحيح.. ولهذا السبب قامت الأم في البداية بالسماح لنا بالمغادرة.. ولكنها بعد قليل اكتشفت الخدعة؛ لذلك صاحت وأبلغت عنّا بقية العنقاء!!

- عن أي خدعة تتحدثين أنتِ؟

لقد توصلت جومانا لتلك النظرية بعد أن قال لها الحكيم:

" **احذري أن يراكِ الحرّاس فيلحقوا بكِ** "

كانت تلك الجملة العابرة هي التي جعلتها تربط الأحداث بعضها ببعض وتفهم السبب الذي جعل الأم العنقاء تلاحقهم، فقالت:

- البيضة التي أعطيتِها إياها كانت فارغة من الداخل، **لقد سرقتِ الفرخ الراقد فيها.**

- مستحيل، هذا الأمر لا يمكن أن يحدث..

في الحقيقة جومانا نفسها لا تملك تفسيرًا منطقيًا يدعم نظريتها تلك؛ ولهذا السبب تحديدًا جلبت الحكيم معها فهو الأقدر على تفسير الأمر وإثبات إمكانية حدوثه من عدمها:

- أتملك تفسيرًا لهذا الأمر أيها الحكيم؟!

أخذ الحكيم نفسًا عميقًا ثم قال بصوت رصين يُفسر الأمر ويحلله بناء على وجهة نظره:

- تموت الفراخ عادة إذا تدخل عامل خارجي بعملية فقسها.

هتفت تاج بنبرة البريء المسكين: أرأيتِ أنني مظلومة ؟!!

- ولكن

- ولكن ماذا يا حكيم النحس؟

- دعيه يُكمل يا أمي - قالت مُدافعة - أكمل أيها الحكيم.

- ولكن إذا كان أوان فقسه وشيكًا فإنه قد ينجو؛ لا سيّما إذا كان فرخًا ينتمي لسلالة قوية مثل العنقاء..

قالت تاج في محاولة لإبعاد التهمة عن نفسها:

- كيف انطلت الحيلة على الأم في البداية ولم تنتبه إذًا ؟

- بيضة العنقاء ليست هشّة كبقية الطيور.. أعني أنها ليست بيضة حمامة أو عصفور.. إنها بيضة ذات قشرة متينة.. وهذا يعني أننا نستطيع إحداث فتحة صغيرة أعلاها أو أسفلها دون أن نُهشم هيكل البيضة..

هو يدرك أن تاج كانت ترغب بتهشيم رأسه تلك اللحظة، ولكنه دون أن يكترث لها أكمل شارحًا وهو يرسم في الهواء بإصبعه ليسهل توصيل الفكرة:

- كل ما يتطلبه الأمر فتحة نصف دائرية بهذا الشكل.. نُخرج من خلالها الفرخ ونُعيد إغلاق الفتحة من جديد.. ثم لكي نُعيد إلى البيضة وزنها السابق فإننا قد نحشوها ببعض التراب أو الحصى الصغيرة..

تدخلت جومانا:

- أو بعض أوراق الشجر؟

- نعم.. أوراق الشجر قد تفي بالغرض.

ثم أردف قائلًا وكأنه يضع خطًّا أسفل كلام مهم:

- بالطبع لن تعود البيضة كما كانت عليه في السابق.. ولكن الليل ولهفة الأم وفرحتها بعودة بيضتها كل تلك الأسباب قد تجعلها تغفل عن الأمر.. غير أن تلك الغفلة لن تدوم طويلًا وستبدأ الأم غريزيًّا بتقليب البيضة لتتحقق من سلامتها..

قالت جومانا:

- وهذا ما جعلها في البداية تسمح لنا بالرحيل بسلام، ولكنها حين قامت بتقليب بيضتها اكتشفت الحقيقة فصاحت علينا غاضبة..

عمَّ صمت ثقيل داخل الحُجرة، قطعه الحكيم بأن قال متخابثًا:

- ولكن هذا الأمر يا جومانا لا يصدر إلا من شخص كريه، حمار ابن حمار وتاج غير ذلك أبدًا.. ألم تسمعيها عندما قالت قبل قليل إنها ستنزع قلبي بسرعة كي لا أشعر بالألم ؟!!

اقتربت جومانا من والدتها وقالت بتوسل:

- أرجوك يا أمي إذا كنتِ قد سرقتِ الفرخ فقولي نعم.

عمَّ صمت ثقيل آخر داخل الحُجرة، قطعه الحكيم مرة أخرى بنبرة متخابثة:

- أنا متأكد أن تاج لا تفعلها يا جومانا، فهي ليست خسيسة لهذه الدرجة..

أرسلت إليه تاج نظرة حاقدة غاضبة، فقال وقد خاف:

- أنا من سرق الفرخ الراقد داخل البيضة..

كررت جومانا عليها السؤال:

- هل سرقتِ الفرخ يا أمي؟

أجابت تاج:

- سوف تأخذين دموعه وترحلين - وأضافت كما لتحذرها:

- ولن تطالبي بإعادته لأمه، أهذا مفهوم؟

- مفهوم.

٨

كانت بيوت الجسَّاسة أغلبها قد صُنعت من الطين وذلك بسبب فقر سكانها، وكانت - البيوت – متقاربة بعضها من بعض ومتلاصقة وذلك لدواع أمنية واجتماعية.. إلا منزلًا واحدًا..

كان مصنوعًا من الخشب وبعيدًا عن المنازل الأخرى مثل أخ مُعاقب، وكان مالكه قد ترك لافتة على بعد ثلاثة أمتار من عتبة الباب مكتوبًا عليها هذا الكلام بخط صغير:

" إذا استطعت قراءة هذه العبارة فهذا يعني أنك وصلت..

وصلت إلى حتفك

وداعًا "

كان ذلك منزل تاج..

**

دخل الثلاثة المنزل..

قادتهما تاج نحو حُجرة ما حيث شاهدا قفصًا خشبيًا للطيور يستقر فوق منضدة من الخشب.. وحين اقترب الحكيم وجومانا من القفص بضع خطوات استطاعا رؤية ما بداخله:

كان فرخًا صغيرًا بحجم قبضة الكف..

له ريش كثيف برتقالي اللون ناعم، ويملك عينين مذعورتين تشبهان عيني أرنب خائف، ولديه منقار صغير معقوف.. وقدمان هزيلتان في كل واحدة منهما خمسة مخالب ضعيفة..

كان شكله لطيفًا وجميلًا ومن يراه لا يُصدق أن ذلك المخلوق الرقيق الصغير سوف يُصبح بحجم الحصان عندما يكبر وسيغدو سلاحًا قاتلًا وفتاكًا.

- أأسميتِه؟

- نعم، اسمه إكليل.

تدخل الحكيم: برتقالة الريش، كان سيكون أجمل ومعبرًا أكثر..

- اسكت أنت يا حكيم النحس..

قال من باب أنها والدة زوجته المستقبلية:

- حاضر يا خالة.

لم تفهم تاج لماذا قال لها يا خالة وإلا لكانت ربما أحرقته، أو سخطته فأرًا وأعطته إكليل يأكله..

فتحت جومانا باب القفص وأخرجت الفرخ.. وجعلت تُمسد ريشه البرتقالي الناعم كالحرير ثم سألت:

- كيف سنأخذ دموعه؟

الحكيم مقترحًا:

- بسيطة، نعذبه بنتف ريشه فيبكي..

قالت تاج: ألا تملك رحمة في قلبك يا حكيم النحس؟

رد عليها ساخرًا:

- ما رأيك أن تُدخلي يدكِ في فمه وتُخرجي قلبه، ربما يبكي بهذه الطريقة..

- سأخرج لسانك الطويل من فمك وأشنقك به..

- مبدعة في القتل يا خالة، أتمنى ألّا تكون ابنتك قد ورثت ذلك عنكِ

**

اقتربت تاج من الفرخ وضربته على رأسه - ضربة ليست قوية - ولكن بالنسبة لفرخ في مثل عمره فقد كان لتلك الضربة تأثير بالغ على نفسيته، فدمعت عيناه حزنًا ونظر إلى سيدته وكأنه بعينيه يسألها عن الذنب الذي اقترفه ليستحق تلك الضربة..

أخرجت تاج قنينة زجاجية من أحد أدراجها، ملأتها بدموعه ثم مدتها لابنتها..

٩

داخل الكهف المهجور الآمن:

قام الحكيم بإعداد وصفة الدواء المكونة من دموع العنقاء وبعض الأعشاب النادرة التي عُرفت بقدرتها على العلاج، وحين تكوّن الدواء أخيراً قال:

- يجب أن يدخل هذا السائل إلى دمه مباشرة..

تساءل أيوب:

- وكيف ستفعل هذا؟

- بواسطة هذه..

قال الحكيم ذلك وهو يُمسك شيئًا دقيقًا بين إصبعيه الإبهام والسبابة، تساءل أيوب:

- أهذه شوكة سمكة؟

- إنها شوكة تعود لمخلوق بحري يسميه الصيادون بـ زُمار البحر، وقد اشتريتها منذ زمن بعيد تحسبًا لمثل هذه الحالات..

كانت تلك الفكرة غريبة بالنسبة لكل من جومانا وأيوب.. ولم يسبق لهما من قبل أن سمعا شيئًا مماثلًا لها، قال الحكيم يشرح ما كان يفكر فيه:

- ما يُميز هذه الشوكة أنها مجوفة ويُمكن استخدامها كنفق يمر الدواء من خلاله إلى الدم..

جومانا:

- أهي طريقة مجربة، أم أننا سندخل في ورطة أكبر؟

- لا تقلقي.

- أنت متأكد مما تفعله إذًا؟

- لا، أقصد لا تقلقي فلا توجد ورطة أكبر من هذه التي نحن فيها.

- لماذا لا نُسقيه إياه من خلال فمه وننتهي؟

قال ساخرًا:

- أوه.. فكرة عبقرية لم تخطر ببالي.. كيف فكرتِ بها؟؟

- أتعلم أيها الحكيم؟!.. أحيانًا لا ألوم والدتي فيك..

قال يشرح لها السبب الذي يجعله لا يستطيع إعطاءه الدواء من فمه:

- هذا السائل يجب ألّا يمر بمعدته وإلا مزقها؛ لذلك يجب أن يدخل مباشرة إلى دمه..

- وهل أنت واثق مما تفعل؟

- لا، ولكنه الحل الوحيد.

قام الحكيم بحقن الشوكة في أحد العروق النافرة لذراع بحر، ثم بدأ من خلالها يُمرر الدواء - قطرة قطرة - إلى مجرى الدم.. واستمر في ذلك حتى تأكد أن الدواء كله بات يجري في جسده..

قال أخيرًا:

- لقد استنفدنا حلول الأرض، والآن لتباركنا السماء.

**

ذهب أيوب إلى جوار الكهف - كما المرة السابقة - وجمع بعض الأغصان اليابسة ثم عاد ليُشعل فيها نارًا للتدفئة..

تحلّق ثلاثتهم حول النار..

كان تعب المغامرة يسكنهم فناموا جميعًا إلا جومانا التي بقيت مستيقظة تحدق في بحر الممدد فوق كومة القش وتنتظر حدوث المعجزة..

**

وبينما كانت تحدق إليه إذ اعترفت لنفسها بأن جزءًا كبيرًا منها كان يميل إليه بطريقة غريبة..

إنه الرجل الأول الذي تجده يُشابه طبائع والدها إلى تلك الدرجة، حتى أنها كانت وهي بالقرب منه تشعر بذات الأمان الذي تشعر به عندما تكون بالقرب من والدها.

كان شعورًا غير قابل للتفسير؛ فذلك الشاب هو أحد قادات الجاثوم - العدو الأول لعائلتها - وكان من غير المنطقي أن تشعر بالأمان وهي معه وقالت تحادث نفسها:

" **ربما يقتلني لو عرف أنني من الأباطرة** "

لكن شعورًا بداخلها كان يقول: " **بحر لا يؤذيكِ** "

وبينما كانت تواصل تحديقها إليه إذ انتبهت لملاحظة هامة: لقد كان وجه ذلك الشاب مألوفًا بالنسبة لها وكأنها قد التقت به في زمن آخر..

هزّت رأسها بقوة وكأنها تطرد الأفكار عن ذهنها..

وقالت تقنع النفس:

هذا الانجذاب إليه ليس إلا شعورًا زائفًا لشخص ضحى بحياته لأجل إنقاذي.. بينما الحقيقة التي يمكنني الوثوق بها هي أن بحر ليس إلا شخصًا غريبًا التقيتُ به قبل أيام وحين ينهض من مرضه ويُشفى فإن كل واحد منّا سيذهب في طريقه..

**

كان يبدو عليها الهدوء لكن القلق كان يتحرك داخلها ويركلها كجنين يركل بطن أمه، وكانت تشعر أنها مسكونة من قبل امرأتين: واحدة تريده والأخرى تريد الهروب منه.

وبينما هي كذلك إذ غفت على نفسها.

حين فتحت عينيها بعد وقت قصير وجدت نفسها متدثرة بقميص واسع عليها..

وحين نظرت أمامها وجدته وقد أفاق واستعاد وعيه..

كان بدون قميص وكان ينظر نحوها..



شعرت بالفرح لرؤيته بخير.. وكانت ستوقظ الجميع لتبشرهم بسلامته ولكنها لم تستطع أن تنطق بحرف وكأن نظراته تلك كانت تُكمم فمها فقالت:

- أبعد نظراتك عني..

أغلق عينيه دون أن يفهم سر ذلك الطلب..

فتحرر فمها غير أن شيئًا ما بداخلها أمرها بالصمت ومواصلة التحديق إليه، وحين فتح عينيه بعد قليل وجد قميصه مُلقًا على الأرض.. وقد رحلت جومانا من أمامه..

لم يُدرك سبب رحيلها ولكنه ارتدى قميصه المخضّب برائحتها - رائحة الياسمين - ونهض من مكانه.. فوجد نفسه قادرًا على استخدام قدمه المصابة ثم للتأكد أكثر من سلامتها فإنه قفز عليها عدث مرات وأدرك أنها قد شُفيت تمامًا.

**

سار نحو كومة الأحطاب المشتعلة..

كان أيوب ينام بوضع مريح.. ولكن الحكيم كان يغفو متربعًا ورقبته مائلة للخلف ووجهه مصوّب نحو السقف ولكأنما حين نام كان ينتظر وحيًا ينزل عليه من السماء..

قام بحر بتعديل رأسه ومسح عن وجهه التراب - التراب الذي كان يتساقط عليه من سقف الكهف - فقام الحكيم بشكل لا شعوري بتقبيل تينك اليدين وغمغم قائلًا:

- يداكِ ناعمتان، عندما نتزوج سأقطعهما وأصنع منهما وسادة.

- لتكن السماء في عون المسكينة التي ستتورط فيك

**

قرر أن يخرج من الكهف ليستنشق بعض الهواء الجديد، وحين خرج وجدها أمامه - جومانا - فابتسم لها بتلقائية وقال:

- ظننتكِ رحلتِ..

أما هي فإنها لم تبادله الابتسامة بل كان سلوكها عدائيًا معه مثل قطة في موسم التزاوج:

- لقد وقفت إلى جانبك لأنك ساعدتني لا أكثر، أما وقد شُفيت فقد أصبحنا متعادلين.. وسيذهب كل واحد منّا في طريقه..

لقد كانت متناقضة ولا تعرف بالتحديد ماذا تريد.. ففي تلك اللحظة كانت تتمنى لو أنه يتمسك بها ويطلب منها البقاء وفي الوقت ذاته كانت تريده أن يطلق سراحها.

أما بحر فقد استطاع أن يقرأ ترددها ذاك فقال:

- سأمهلكِ بعض الوقت لتفكري.

- لا أريد أن أفكر

- أنتِ متأكدة إذًا بشأن هذا الاتفاق؟

- نعم متأكدة..

- وما هو الاتفاق بالضبط؟!

- هو أن نعود أغرابًا.. لا أعرفك ولا تعرفني ولا يكترث أحدنا بالآخر..

- حسنًا، كما تشائين.

استدارت ورحلت..

ولكن في تلك اللحظة يسقط بحر على ركبته أرضًا ويئن متوجعًا فتعود جومانا لتتفقده:

- ما بك، ما الذي جرى لك؟!!!

بقي لبعض الوقت صامتًا لا يُجيبها ثم فجأة ابتسم وعاد للوقوف على قدميه وكأن شيئًا لم يكن وقال:

- لا شيء، أردت التأكد فقط من مدى التزامك بالاتفاق..

شعرت بغضب المهزوم، فغمغمت وهي تستدير وتعاود الرحيل:

- غبي !!

- لحظة لحظة..تعالي.. ماذا قلتِ؟؟

- لا شيء..

- لقد سمعتكِ.. قلتِ غبي

- لماذا تسأل إذًا إن كنت قد سمعت ؟!

ارتسمت عليه ابتسامته الباردة وقال:

- أردت التأكد فقط إلى أي مدى أنتِ شجاعة..

رحلت من أمامه غاضبة..

بينما وقف يتأمل ابتعادها وهو يضحك..

سمع بحر صوتًا خلفه - صوت وقع خطوات - فالتفت للوراء وجاءت عينه بعين صديقه أيوب .. بدا الاثنان سعيدينِ برؤية بعضهما بعضًا قال أيوب بعد لحظات:

- لقد رأيتُ العالم بدونك يا بحر وكان بشعًا جدًّا..

- إنها لعنة الحياة يا صديقي؛ فمهما امتدت بنا إلا أننا سنفترق يومًا..

- لنبقَ فيها إذًا أطول فترة ممكنة.

ثم تعانق الصديقان..

وجاء الحكيم بعد قليل وحشر نفسه بينهما.. كان سعيدًا بأن كل شيء انتهى على ما يرام، طال العناق بينهم حتى قال الحكيم وقد أوشكت أنفاسه على الانتهاء:

- إن لم ينتهِ هذا العناق الآن فسوف يكتب التاريخ أن الحكيم مات مختنقًا..

الباب السادس

١

غابت جومانا ثلاثة أيام عن الكهف المهجور الآمن.. وهذا الغياب هو ما جعل بعض الأسئلة الفضولية تنهض بداخلها:

أما زال هناك، أم أنه غادر؟

وإذا غادر فأين ذهب؟

هل سيعود للعمل مع الجاثوم؟

أم سيبحث لنفسه عن حياة جديدة؟

كانت تستطيع الذهاب للكهف دون أن يراها أحد، وتعرف إجابات تلك الأسئلة.

ولكنها كانت قد وعدت نفسها بأن تبتعد عن بحر؛ فهي تخاف منه وفي الوقت ذاته تخاف التعلّق به فتؤذيه كما آذت قبله مَيثم، ورغم هذا وذاك كان هاجس الاطمئنان عليه يلحُّ عليها كثيراً فلم تجد غير شخص واحد تستطيع أن تأخذ الأخبار منه.

ذهبت إلى منزل الحكيم ليلًا..

كانت القناديل الداخلية لمنزله مطفأة، فلم تشأ أن تطرق الباب ودخلت.

سارت حتى وصلت لحُجرة كان يصدر منها بعض الأصوات والهمهمات الغريبة..

اقتربت لتشاهد ما كان يحدث بالداخل.. وحين نظرت من أحد ثقوب الباب شاهدت الحكيم وهو يُمسك سيفًا ويقوم بالتدرّب على بعض الحركات القتالية..

كان وجهه جادًا أكثر من أي وقت رأته في السابق، وكان يصرخ من وقت لآخر بكلمات بطولية مثل: " أنا لا أخاف، أنا قوي، ومقاتل شجاع وأسطوري "

وفي تلك اللحظة فتحت عليه الباب ودخلت.. فما أن التفت ورآها حتى انكمش على نفسه وصرخ خائفًا، مما اضطرها لأن تُهدئ من روعه:

- اهدأ أيها الحكيم، لا تخف هذه أنا..

ساءه أن تكون قد رأته بذلك المنظر الخائف فقال مكابرًا:

- لم أخف، إنما هذه صرخة تُطلق أثناء المعارك والقتال!!

- وفي أي لحظة من لحظات المعركة تُطلق هذه الصرخة يا ترى؟

قال معترفًا وهو يُلقي من يده السيف:

- في اللحظة التي يجلدك فيها الخصم.

ثم جلس أرضًا وجلست إلى جواره:

- ما بك؟.. ما الذي جرى لك؟.. لماذا تتدرب على القتال؟

كان يتدرب ليكون قويًا مثلها ومثل أيوب وبحر، ولكنه لم يشأ أن يعترف لها بذلك فيَلفت نظرها إلى ضعفه وقِلة حيلته فقال هاربًا من الإجابة:

- كم مرّة قلت لكِ أن تطرقي الباب قبل أن تدخلي؟!!

- كانت الأضواء مُطفأة، لم أكن أعرف أنك في المنزل..

- ومع ذلك دخلتِ، هل كنتِ تنوين سرقتي؟!!

- لا؛ بل لأسألك عن صحة بحر..

أخذ نفسًا عميقًا ثم قال بنبرة مهمومة:

- لديّ أخبار سيئة بخصوصه..

- ما الذي حدث؟

- لقد بات وضعه صعبًا..

- ولكنه شُفي وقد شاهدته وهو ينهض من فراش مرضه.

- لا تنسي أنه بذل مجهودًا كبيرًا..

وقام يُعدد لها الأشياء التي فعلها بحر في الآونة الأخيرة: لقد نزف الكثير من الدم .. وماتت قدمه .. وقام باللحاق بكم إلى أرض العنقاء وهو مريض .. ثم انتشر الموت في جسده .. نعم يا جومانا لقد شُفي .. ولكن حالته الصحية انهارت وتدهورت للأسوأ ..

- وأين هو الآن؟
- في الكهف - قالها بأسف وأضاف:
- إنه طريح الفراش، ولا يوجد من يهتم به..
- وأين أيوب؟
- يقضي نهاره في الصيد لأجل تأمين الطعام ويقضي ليله في الحراسة
- الحراسة؟.. يحرسه من ماذا؟
- هل نسيتِ أن بحر وأيوب انقلبا على الجاثوم؟
- تقصد أن أيوب يحرسه من غدر المنظمة؟
- بالضبط.
- وأنت لماذا لا تهتم به؟
- أنا حكيم هذه القرية.. ولا أستطيع أن أتغيّب عنها لمدة طويلة؛ فهناك من يحتاجني فيها..
- والحل؟
- تذهبين أنتِ..
- أنا ؟.. أنا لا .. أنا لن أذهب
- إذًا سوف تسوء حالته أكثر، وغالبًا سيموت في النهاية.

لاذت بالصمت ومكثت تفكر بحل لتلك الورطة، أدرك الحكيم مدى ما يحدث بداخلها من اضطراب وتردد فقال يسألها:

- ما بك، أخبريني
- لا شيء

قال يحثها على الكلام: اثنان لا تكذبي عليهما.. حكيمكِ الذي يُعالجك وزوجكِ.. وبما أني زوجكِ المستقبلي فإنكِ تستطيعين إخباري بالحقيقة..

- أيها الحكيم لقد بدأت أصدق أنك فعلًا تريد الزواج بي.

لاذ هو بالصمت هذه المرة ولم يتكلم، فقالت:

- ما بك، أخبرني

- لا، لا شيء

قالت تحثه على الكلام: اثنان لا تكذب عليهما.. الحكيم الذي يُعالجك.. وصديقتك.. وبما أنني صديقتك فإنك تستطيع إخباري بالحقيقة..

أخذ نفسًا عميقًا، ثم اعترف: أنا لا أستطيع الزواج

نظرت إليه نظرة مُشفقة:

- يا لك من مسكين، أنت لستَ كبقية الرجال إذًا

- لا لا انتظري .. إلى أين شطح بك عقلك أنا سليم وقادر على الزواج ولكن أقصد أنني لستُ راغبًا فيه..

- لماذا؟

- لأن القلوب تُصبح فاسدة بعد الفراق، ولا تصلح للحُب مرة أخرى..

- تتحدث وكأنك جرّبت الحُب من قبل..

- كلٌّ لديه قصته، لا تصدقي أحدًا يقول لكِ عكس ذلك.

- من يُعاشر لسانك الطويل ويرَ مُزاحك المستمر ثم يسمع كلامك الحزين هذا يتعجب..

قال معترفًا بشيء لم يسبق له أن قاله لأحد من قبل:

- مُنذ أن خُذلت ذات مرة وأنا أستخدم المزاح كوسيلة للهرب، ولكن يا صديقتي إن الذين يضحكون كثيرًا هُم أكثر أهل الأرض حُزنًا.

قالت:

- لم أكن أعرف أنك بهذه الرقة من قبل

- أووه.. عندما نتزوج ستكتشفين أشياء أجمل وأجمل..

ابتسمت لكلامه، بينما قال:

- جاء دورك.. هيا أخبريني ممَّ أنتِ قلقة؟

- سأخبرك لاحقًا، ولكن الآن أعطني الدواء..

- قررتِ أن تذهبي إليه إذًا؟

- لا أملك حلًّا آخر..

أعطاها بعض الأدوية في صُرة من القماش وأفهمها كيف تقوم بتحضير الدواء له وأخبرها عن مواعيد إعطائها إياه..

قالت أخيرًا قبل أن تغادر منزله:

- لقد أخبرني والدي ذات مرة.. أن القوة لا تقاس بمدى قدرتنا على أذية الآخرين بل بمدى قدرتنا على حمايتهم من الأذى؛ لذلك أيها الحكيم أنت لست ضعيفًا، أنت قوة هائلة..

٢

في الكهف المهجور الآمن..

كان ممددًا فوق كومة القش عندما سمع وقع خطوات تقترب منه، وقد بدا وكأنه غير قادر على تحريك أعضاء جسده.. بسبب المرض ربما.. قال بصوت واهن دون أن يلتفت ويرى القادم:

- لقد عدت مبكرًا اليوم يا أيوب.

ردت عليه جومانا:

- أيبدو شكلي مثل أيوب؟

ابتسم رغم التعب حين سمع صوتها، التفت بصعوبة شديدة وقال:

- ليس تمامًا، بينكما اختلاف طفيف

- حتى وأنت مريض لا تستطيع التوقف عن المزاح؟

- ما الذي عاد بك؟

- لأسمع مُزاحك الثقيل..

- إن كان مُزاحي يُزعجك، فلن أمزح معكِ مرة ثانية.

كانت تظهر له انزعاجها من مُزاحه ولكن في الحقيقة كان يُعجبها أن يمزح معها:

- أنت لا تُزعجني.

- حقًّا؟

هزّت رأسها، فقال:

- أأقول لكِ الحقيقة إذًا وبعيدًا عن المزاح؟

- قُل

- أنتِ لا تُشبهين أيوب، أنتِ أجمل منه بقليل.

- أأقول لك الحقيقة وبعيدًا عن المزاح؟

- قولي..

- أفكر أحيانًا بتسميمك لأرتاح منك

ابتسم وقال:

- لا بأس، أموت ودموعكِ تُحييني..

رفعت أصبعها في وجهه مُهددة:

- اسمع يا أنت.. ربما تمتد رعايتك لأيام طويلة.. وأنا لا أريد أن أسمع كلامًا مثل هذا مرة أخرى..

- ألم تقولي إن مزاحي لا يُزعجكِ؟؟

- ليكن مُزاحك في أشياء مضحكة، وليس غزلًا

- لماذا تعتقدين أنني أغازلك؟.. أنا أغازل بقرة ولا أُغازلكِ

- أنت لا تستطيع مغازلة البقرة، أتعلم لماذا؟

- لماذا؟

- لأن الأخ لا يُغازل أخته!!

ندت عنه ابتسامة.. ولكنها حزينة، وتكدر خاطره حين سمع تلك العبارة، لقد مسّت جومانا بكلامها ذاك جُرحًا خفيًّا في نفسه وهمس قائلًا:

- يبدو أنه أصبح لدينا حكيم آخر..

شعرت جومانا بتأنيب الضمير لقولها ذلك فاعتذرت:

- لا تغضب مني، آسفة لم أقصد.

- لا تعتذري، لقد كانت دعابة رائعة..

- لماذا تغيرت ملامح وجهك إذًا؟

- تذكرتُ شيئًا قديمًا..

**

أخرجت جومانا قِدرًا صغيرًا من الصُرة القماشية.. وضعت فيه ماءً وبعض الأعشاب - كما أفهمها الحكيم - ثم أوقدت النار أسفله ومكثت تنتظر لبعض الوقت..

بعد ساعة زمان سكبت الدواء في آنية من الفخار وقدمتها له:

- اشرب، هذا سوف يمدك ببعض القوة..

نظر إلى الدواء دون أن يتحرك، فسألت:

- ما بك؟

- أنا عاجز عن الحركة..

لقد كان - شبه مشلول - فقامت بتعديل جلسته وأسقته من آنية الفخار، ثم مسحت له فمه من بقايا الدواء وساعدته على التمدد فوق كومة القش:

- يجب أن ترتاح، لتعطي الدواء فرصته.

- إذا كان وجودكِ هنا يُزعجك، تستطيعين الانصراف - وأضاف بكبرياء:

- أستطيع تدبر شؤوني بنفسي.

- لا، بل سأبقى لرعايتك حتى تستعيد عافيتك

- وماذا بشأن الاتفاق؟

- بعد أن تستعيد عافيتك سوف نعود للاتفاق، ويذهب كل واحد منا في طريقه..

هزَّ رأسه وهمس لها ممتنًا قبل أن يغرق في الصمت: شكرًا.

٣

عند منتصف الليل طرأ في رأسها سؤال كان يشغل بالها منذ مدة، فقالت تُمهد له:

- خان العبيد مكان لا يقصده الصغار في العادة.. إنه مكان يقصده أولئك الذين يريدون بيع أو شراء العبيد، فما الذي جعل آنذاك صبيًّا في مثل عمرك يذهب إليه؟..

- كيف عرفتِ بهذه القصة؟

- أيوب أخبرنا بها.

لم يتكلم فعادت تسأله:

- لماذا ذهبت إلى خان العبيد وأنت في مثل ذلك العمر؟..

- ربما لن تصدقيني لو أخبرتك

- لا عليك سأحاول

- ذهبتُ لأطلب من أحد التجار أن يبيعني.

- توقف عن المزاح وقل الحقيقة

- لقد قلت إنكِ لن تصدقيني

- بالطبع لن أصدق؛ فلا أحد يختار بمحض إرادته أن يكون عبدًا

- ولكنني اخترت يا جومانا..

- لنفترض أنك تقول الحقيقة.. هل يُمكن أن تخبرني بالسبب؟

- كنت أشعر بالبرد

- من يشعر بالبرد يشتري معطفًا أو يُشعل نارًا

- البرد الذي كنت أشعر به آنذاك كان مختلفًا.. كان ينبعث من الداخل.. من قلبي وليس من الطقس..

وقال يشرح لها:

- كنتُ حينها في العاشرة من عمري وكانت عائلتي قد رحلت عني منذ وقت طويل.. مللت التسكع وحياة التشرد.. فطرقت الأبواب بحثًا عن أسرة تؤويني ولكن المنازل كلها أغلقت أبوابها في وجهي.. برد شديد يا جومانا كنت أشعر به وأنا صغير.. برد لا يُجدي معه المعطف أو النار نفعًا إنه برد الاشتياق للعائلة..

- أين رحلت عائلتك؟.. لماذا تركوك ولم يأخذوك معهم؟

- ماتوا.

- كيف؟

- الجن قتلوا عائلتي؛ لذلك أنا أكره الجن كلهم.

كان في صوته حقد عميق فصمتت الجنية لشدة خوفها وأدركت السبب الذي جعله قبل قليل يحزن عندما قالت له: " الأخ لا يغازل أخته " ربما ساءه أن يشبه أحدهم أخته الميته بالبقرة.

كانت تريد أن تغير الموضوع وتنتقل للحديث عن شيء آخر ولكنها حين فتحت فمها وجدت فضولها يسأله:

- لماذا قتلوهم؟

- كنت صغيرًا ولم أعرف السبب، ولكنني رأيت بعينيَّ ما حدث..

كان طفلًا ذا ثلاثة أعوام تقريبًا وينتمي لعائلة عُرفت بقوتها وفروسيتها في القتال.. ولكن حفنة من الجن فجأة قتلوهم غدرًا ودون سابق إنذار، قتلوا العائلة كلها وتركوه وحيدًا..

لم يتركوه شفقة به ورحمة بل لأن والدته تحملت إصابة الموت وقاومت لتحميه: فألقت بجسدها فوقه وكتمت بكاءه بيدها حتى رحل الجن من هناك..

لاحقًا لم يقبل أحد من سكان القرية إيواءه؛ خافوا أن يعود أولئك الجن في وقت ما للبحث عنه ثم يخسفوا بالعائلة التي يجدونه عندها ورغم ذلك إلا أن بعض سكان القرية كان يترك له في الأرض شيئًا من الشراب والطعام حتى لا يموت الصغير جوعًا..

فعاش في طرقات القرية وحيدًا ومهجور مثل حيوان أليف تخلى عنه أصحابه..

وعندما كبر قليلًا وبات في السابعة من عمره حاول أن يسأل أهل قريته عن الجن الذين قتلوا عائلته، كان يريد أن يعرف الإجابة حتى يعرف عدوه ويستعد للثأر منه..

ولكن سكان القرية كانوا يتجاهلونه ويمتنعون عن إعطائه الإجابة خشية من أن يجرهم ذلك المتهور في حرب لا طائل لهم بها مع أولئك الجن..

وحين فقد الأمل منهم فإنه قام ذات ليلة بإحراق كل منازل القرية، وغادرها إلى الأبد.

ومنذ ذلك اليوم وهو يبحث عن جماعة الجن تلك ليأخذ بثأره منهم ولكن لأنه لم يعثر عليهم فقد اعتبر أن الجن - كل الجن - قتلوا أسرته وقرر أن يقتل كل جني يُصادفه في حياته.

سألته جومانا قاطعة عليه سرد القصة:

- ولكنك تعمل مع ناب الفيل، وهو أحد الجن؟

- إنه الاستثناء الوحيد..

عندما كانا صغيرين - بحر وأيوب - عاشا حياة مشرّدة..

وقد كانا يكسبان رزقهما عن طريق حمل البضائع ونقلها من السوق إلى منازل الزبائن..

وذات يوم وبينما كانا في آخر الليل عائدين من السوق تلقى الاثنان من الخلف ضربة قوية أفقدتهما الوعي.. ليستيقظا بعد ساعات ويجدا نفسيهما في مكان آخر..

كان المكان الذي وجد الصغيران نفسيهما فيه عبارة عن حُجرة فسيحة، يجلس في آخرها رجل ما.. كان رجلًا حاد الملامح ذا عيون زرقاء ناعسة.



قال:

- اقتربا..

همس أيوب: أنا خائف.

رد عليه بحر بذات الهمس: لا تسمح لأحد بأن يرى خوفك.

ثم أردف قائلًا وهو يلتقط فردة حذائه ويتقدم:

- اتبعني..

تقدم الاثنان حتى وقفا مقابل ذلك الرجل، فتكلم بحر معه بنبرة الند للند:

- أأنت من قام بخطفنا يا هذا؟

ندت عن الرجل ابتسامة إعجاب وقال يخبرهما عن سبب إحضاره لهما:

- اخفض سلاحك يا بحر أنا طاغين ملك مملكة أبابيل.. وأريدكما أن تعملا معي.

كان طاغين في تلك الفترة يبحث عن أشخاص يُجندهم للخدمة في الجاثوم.

وقد وقع اختياره عليهما لعدة أسباب منها أنهما صغيران في السن فيسهل عليه غسل عقليهما.. ومنها أيضًا أنهما لا يملكان عائلة فيكون ولاؤهما له مضمونًا..

أما هما - بحر وأيوب - فقد وجدا العمل مع ملك مملكة أبابيل فرصة رائعة لا يمكن تفويتها، ولم يدر في خلدهما أنهما سيعملان مع الشيطان نفسه.

**

كان أول شيء تعلماه في المنظمة هو أن ذلك القائد ذا العيون الزرقاء له وجهان:

وجه اسمه **طاغين** " وهو ملك مملكة أبابيل "

ووجه آخر اسمه **ناب الفيل** " وهو القائد الأعلى لمنظمة الجاثوم "

والأهم من هذا وذاك هو أن لا أحد من الشعب يعرف تلك الحقيقة.

خاض الاثنان تدريبات قاسية حتى أصبحا يتمتعان بالقوة.

وأثناء مدة التدريبات كان ناب الفيل يحرص أولًا على غسل دماغيهما وثانيًا على كسب ولائهما المطلق حتى أصبح كل واحد منهما مع الوقت يدين له بالولاء الكامل، ويُنفذ أوامره دون تفكير أو سؤال..

وبعد مدة طويلة وحين أثبت كل واحد منهما كفاءته العالية في تنفيذ المهمات الموكلة إليه.. قام ناب الفيل بتنصيبهما قائدين من قادات منظمة الجاثوم.

قال بحر أخيرًا يُنهي سرد قصته لجومانا:

- طاغين هو الشخص الوحيد الذي احتوانا عندما كنا صغيرين.

**

كانت تلك هي القصة التي يعرفها بحر..

ولكن الحقيقة التي لا يعرفها.. وربما يموت في المستقبل قبل أن يكتشفها هي أن:

" طاغين ورفاقه من منظمة الجاثوم

كانوا هم جماعة الجن أولئك الذين قتلوا عائلته "

٤

استمرّت رعايتها له لمدة شهر تقريبًا..

ثم في مساء أحد الأيام - وكان مساء اليوم التاسع والعشرين لهما داخل الكهف - التفت بحر إليها وقال شيئًا غريبًا:

- لقد رأيتُ العالم الآخر.

- العالم الآخر؟

- نعم، بينما كان جسدي فاقدًا للوعي انتقلت روحي لعالم الموت.

أكمل قائلًا بينما كانت هي تُصغي إليه بانتباه:

- كان المكان مريحًا وهادئًا ويملؤه السلام، ولم أكن أريد العودة للحياة؛ فكل الذين يذهبون إلى هناك لا يرغبون بالعودة مجددًا

- ولماذا عُدت؟

قال دون تردد: لأجلك.

رفعت إصبعها في وجهه تذكره بالاتفاق الذي بينهما، فأمسك يدها وقال:

- أنا لا أمزح إنها الحقيقة، لقد عُدت لأجلك.

إلى هذه اللحظة كان كلامه عاديًا، ولكن الشيء الغريب سوف يظهر في كلامه القادم:

- كان طريق العودة مُظلمًا وصعبًا يا جومانا، كان الأمر أشبه بأن تقودي مركبًا صغيرًا في محيط مُظلم واسع حيث لا علامة أو نجوم في السماء تقود إلى الطريق الصحيح، فضعنا في منتصف الطريق..

أثار استخدامه لصيغة الجمع تساؤلها، فقالت:

- أكان معك أحد في العالم الآخر؟

- نعم.

- من؟

- رجل أسود مبتور القدم، رآني تائهًا فقرر مساعدتي.

حين سمعت تلك الأوصاف فزَّ قلبها، وسألت بلهفة:

- أقال لك اسمه؟

- نعم، كان اسمه مَيثم

صمتت بينما قالت عيناها البُندقيتان له

" كيف عرفتما الطريق إلى الحياة "

أجابها قائلًا:

- دلّتنا إليه رائحة الياسمين، رائحتك.

ثم نهض بحر من فوق كومة القش - لقد زال عنه المرض وكان قادرًا على الحركة - سار بخطوات سليمة حتى ثنى ركبتيه وجلس أمامها.. أما هي فقد قالت والدهشة في عينيها:

- لقد شُفيت - وأضافت بصرخة فرح: أنت تستطيع الحركة !!

قال معترفًا بالحقيقة:

- حالتي الصحية لم تتدهور، لقد كنت أكذب عليكِ طيلة الوقت.

وبينما كانت جومانا ترزح تحت صمت الدهشة، قال لها السبب الذي لأجله كذب عليها:

- عندما اختفيت لمدة ثلاثة أيام عرفت أنكِ كنتِ صادقة حين قلتِ إن الذي بيننا قد انتهى؛ لذلك وضعت أنا وأيوب والحكيم هذه الخطة لتدفعكِ للعودة إلى هنا.

واصلت صمتها بينما قال:

- كنت أريد التأكد من حقيقة شعوري تجاهك، وقد تأكدت.

لقد خاض ذلك الشاب حياته كلها في القتال والحروب؛ لذلك عندما حانت لحظة مكاشفتها بحقيقة شعوره تجاهها فإنه تردد وخاف وشعر بالقلق..

كانت كلمة الحُب ثقيلة على لسانه فقالها بصيغة أخرى:

- قلبي يميل إليكِ

بقيت صامتة للحظات قليلة، ولكن تلك اللحظات القليلة كانت بالنسبة له وقتًا طويلًا لا ينتهي فقال يحثها على الكلام:

- ألا تقولين شيئًا؟

- لقد كذبت عليّ مدة شهر كامل، وجعلتني أبدو كالغبية.

وأضافت بنبرة غاضبة:

- لقد استغفلتني، وهذه أحد الأشياء التي لا تغفرها المرأة.

- لم يكن لديّ خيار آخر، فقد رحلتِ وقررتِ ألّا تعودي.

- مهما كنت تعتقد أن دوافعك نبيلة فإنه لا يحق لك أن تكذب على الآخرين..

لقد تعلم مع مرور السنوات أن الاعتذار لا يعني الضعف، بل الضعيف وحده هو من يخاف أن يعتذر فقال بصدق:

- أنا آسف.

لقد قال إنه آسف دون أن يُبرر لها أو يشرح الأسباب.

وهذا يعني أنه يحترم غضبها ويُقدره.. وربما هذا الأمر هو ما جعلها تهدأ قليلًا.. ولكن هدوءها ذاك لم يصل إلى الحد الذي يجعلها قادرة على مواصلة الاستماع إليه فقالت وهي تنهض من مكانها:

- هذا فِراق بيني وبينك..

ثم ابتعدت..

كانت تلك هي المرة الأولى في حياته التي يعترف فيها بمشاعره لأحد، وقد ندم لأنه فعل ذلك وتمنى لو أن الوقت يعود به للوراء قليلًا حتى يركل فكرة الاعتراف من رأسه ويلتزم الصمت.

أسند رأسه للحائط الذي خلفه، أخذ نفسًا عميقًا ثم سمح للكلمات المحبوسة في صدره بالخروج:

- تبًّا، لقد كانت فكرة سيئة..

خرج أيوب الذي كان يختبئ داخل فتحة موجودة في نهاية الكهف، وجلس بجواره:

- لقد نصحتك بألّا تفعل.

أغمض بحر عينيه بينما كان لا يزال رأسه مسنودًا للحائط الذي خلفه وجعل يتذكر المرة الأولى التي رآها فيها، وبالتحديد عندما خطفها الفارس غُفران وكانت تطلبه النجدة:

- حين رأيتها أول مرة شعرت أنني أعرفها يا أيوب، وكأنني التقيتُ بها في زمن آخر..

واستطرد قائلًا:

- كنت أعرف أن قتلي غُفران يُعد خيانة في قوانين الجاثوم، كنت أعرف أن أفراد المنظمة سينقلبون ضدي.. ورغم ذلك لم أتردد لحظة واحدة في إنقاذها..

قال أيوب وقد استنتج الأمر:

- إذًا عندما اندفعت لتُنقذها كنت في الحقيقة تشعر وكأنك تندفع لإنقاذ شخص تعرفه.

- نعم؛ فما كنت سأفعل ذلك لأجل شخص غريب

- أأنت نادم على إنقاذها؟

- لا.. ولو يعود الوقت بي ما كنت سأتردد لحظة واحدة.. حتى لو أني كنت أدرك أن العالم كله سوف ينقلب ضدي وليس الجاثوم وحدهم.

انقطع بينهما الحديث وساد صمت طويل، قبل أن يلتفت بحر إلى صديقه ويتأمله لبعض الوقت، ثم ينهض من مكانه ويقول:

- لقد حان وقت الوداع يا صديقي.

- ماذا تقصد؟

- لقد أخبرتني أنك تريد الإقلاع عن العمل مع الجاثوم، وهذه فرصتك.

- وأنت، ماذا ستفعل؟

- سأعود لحياتي السابقة فأنا لست مثلك؛ أنا لا أملك الدافع الذي يجعلني أُقلع عن العمل معهم..

نهض أيوب واقفًا وعانق صديقه..

دمعت عينا بحر في تلك اللحظة وأحس أيوب بقطرات الدموع وهي تتساقط على كتفه، كانت تلك هي المرة الأولى التي تدمع فيها عيناه منذ لقائهما الأول في سوق العبيد، قال أيوب:

- لماذا تدمع عيناك؟

- فراقك ليس سهلًا..

- ولكنني لن أفارقك، أنا عائد معك..

- لماذا تعانقني أيها الأحمق، لقد ظننت أنك بذلك تودعني!!

ابتسم أيوب كاشفًا عن أسنان بيضاء بينها سنة واحدة ذهبية:

- لقد بدأنا هذا المشوار معًا فإما أن نُنهيه معًا وإما أن نُكمله معًا.

مسح بحر عن عينيه الدموع وقال:

- استعد إذًا سوف نعود للجاثوم مع شروق الشمس

- أتعتقد أن ناب الفيل يغفر لنا ما فعلناه؟

- لا تقلق سنعرف كيف نُقنعه.

٥

قبل شروق شمس ذلك اليوم بقليل سمع الحكيم طرقًا على باب منزله، وحين ذهب ليفتح الباب وجدها جومانا.. مدت إليه قطعة ذهبية منقوشًا عليها رمز مملكة النبي سليمان وقالت:

- سأعود إليك عندما أستطيع تدبر أمر الكتاب.

ثم استدارت من أمامه وهمّت بالرحيل، ولكنه استوقفها:

- أعرف أنكِ غاضبة مني

أكملت طريقها دون أن تلتفت: لا، لستُ غاضبة

- لماذا أنتِ محترمة إذًا؟

التفتت إليه:

- أكنتُ قليلة أدب معك لتستغرب اليوم احترامي؟

- لقد طرقتِ الباب، وجرت عادتكِ ألّا تُظهري كل هذا الاحترام لخصوصيتي..

قالت تعاتبه:

- لماذا اشتركت معهما في الخطة؟

- لم أكن أريد ولكن بحر هدد بأذيتي إن لم أشارك..

- ما كان سيعرف لو أنك أخبرتني بالحقيقة تلك الليلة

- بل كان سيعرف - وقال معترفًا: أيوب كان مختبئًا في الغرفة المجاورة، ليتأكد من مدى التزامي بالخطة..

- ينبغي على المرأة التي تخاف الخيبة ألّا تثق بالرجال أبدًا.

- حمدًا للرب أنني لستُ منهم.

ثم سريعًا استدرك فداحة خطئه فقال مصححًا:

- أنا رجل، ولكن أقصد أنني لستُ مثل بقية الرجال.

- أشك في ذلك.

- تشكين في أنني رجل؟

- أشك في أنك لست كبقية الرجال.

- حسنًا، دعينا ندخل المنزل الآن وسأثبت لكِ ذلك

- تثبت ماذا قطع الرب لسانك!!

- أُثبت لكِ أنني طيب القلب ويُمكن الوثوق بي

- أوه.. آسفة.. لقد فهمت شيئًا آخر

- أنتِ جنية ذات تفكير قذر.

- لا تتمادَ؛ فأنا لا أزال غاضبة منك.

بدت خطوط البرق تلمع في السماء مؤذنة بهطول المطر، فسح الحكيم لها مجالًا للدخول وقال:

- دعينا نُكمل حديثنا في الداخل.

- آسفة، لديّ ما أفعله.

- ماذا لديكِ؟

- أريد أن أؤدي طقوس الغضب

- ماذا تفعلين عند الغضب؟

- أحطم الأشياء

- لا بأس، ادخلي وسأشاركك.

- كيف تشاركني؟!

- أنتِ تحطمين الأشياء وأنا سوف أشتم

- تشتم؟

- نعم؛ أنا ماهر في السِباب والشتيمة.

كان آخر ما تريده في ذلك الوقت هو شخص ينصحها أو يعاتبها، أما وقد وجدت شخصًا يُشاركها الغضب فقد كان ذلك بالنسبة لها أمرًا مغريًا جدًّا:

- ألديك ما يُحطم في الداخل؟

- المهم ألّا تقربي كُتبي.

في تلك الليلة حطمت جومانا الكثير من الأشياء في منزله بينما كان هو يعتلي أريكة الغرفة ويضع يديه عند فمه مثل مكبر الصوت يُشجعها تارة، ويشتم لأجلها بحر وأيوب تارة أخرى..

وعندما انتهت الأشياء القابلة للتحطيم في منزله كانت جومانا قد نفَّسَت عن غضبها وشعرت بالهدوء.. فتمددت أرضًا وسط أكوام الحُطام وضعت يديها خلف رأسها صانعة منهما وسادة وقالت معترفة:

- أشعر كما لو أنني أعرفه منذ زمن بعيد جدًّا.

جلس الحكيم على الأريكة التي كان واقفًا عليها - وكان ذلك هو الشيء الوحيد الذي لم يُحطم في منزله - وقال:

- ربما كان معك في عالم ما قبل الأرض، وعقدتِ ميثاقك معه.

التفتت إليه متعجبة وبدت أنها تسمع ذلك الكلام لأول مرة، فقال يسألها:

- ألم تسمعي بعالم **الملكوت** من قبل؟

- لا، أخبرني عنه.

- إنه العالم الذي كنا فيه مجرد أرواح قبل نزولنا إلى الأرض .. وفي ذلك العالم عُقدت المواثيق بين الأرواح يا جومانا .. وحين هبطنا إلى الأرض بدأت كل روح تبحث عن روحها الأخرى ..

- تقصد أن بحر قد يكون هو الروح الذي عقدتُ ميثاقي معه؟

- لستُ متأكدًا ولكن لا يوجد هناك تفسير آخر يشرح انجذابكِ إليه، أو الإحساس الذي يظل يخبرك بأنكِ كنتِ تعرفينه من قبل.

ثم أضاف مستطردًا:

- ويبدو أن هذا الأمر.. أقصد مواثيق الأرواح.. هو الذي يفسر لنا سبب التجاذب أو التنافر الذي نشعر به تجاه الآخرين أحيانًا..

وأضاف ساخرًا:

- لا بد أنني ووالدتكِ كنّا أشد الأعداء في ذلك العالم.

- ولِمَ لا نتذكر شيئًا عن هذه المواثيق؟

- ربما يكون الرب قد أنسانا هذا الأمر لحكمة ما.. ولكنه في المقابل سمح لأرواحنا أن تتذكر..

قالت:

- ولكنني أخاف أشياء كثيرة.

ثم صمتت وطال صمتها فعرف الحكيم أنها لا تريد إخباره عما تخافه فقال لها:

- كل واحد منّا لديه وحشه الخاص به، هذا الوحش لا يُهزم إلا عندما نتحدث عنه مع الأشخاص الذين نثق بهم، أتثقين بي يا ابنة الأباطرة؟

هزَّت رأسها بعلامة " نعم " فقال:

- لنهزم وحشكِ إذًا.

تشجعت واعترفت له بأول اعتراف:

- أخاف أن أعتاد عليه فيرحل؛ إن كل الأشياء التي أحببتها ترحل عني وتتركني.

لم تكن تتحدث عن صديقها مَيثم وابنته ريحانة فقط، بل عن أخيها أساطير أيضًا.

قال يخبرها عن الطريقة التي ينظر بها إلى الحياة:

- إن الحياة يا صديقتي قصة كبيرة كتبها الرب بقلمه .. كل واحد فينا لديه دوره الذي يؤديه .. وما أن تنتهي مهمة الواحد منّا حتى يغادر القصة ويرحل.

استغرقت جومانا وقتًا تتأمل تلك الحكمة: " **إن الحياة قصة كبيرة كتبها الرب بقلمه، كل واحد فينا لديه دوره الذي يؤديه، وما أن تنتهي مهمة الواحد منّا حتى يغادر القصة ويرحل..** "

وحين طال صمتها ذاك قال يحثها على أن تُدلي باعترافها التالي:

- أخبريني من ماذا تخافين أيضًا؟

- إنه يكره الجن.. ليس هذا فقط.. إنه يعمل مع ناب الفيل أيها الحكيم وهذا يعني أنه يعتبر عائلة الأباطرة عدوه الأول.. كيف لي أن أتأكد من أن عائلتي ستكون بأمان بعد أن أخبره عنهم؟

وأضافت:

- أنا أستطيع أن أثق به وأغامر بحياتي معه.. فإذا خاب ظني فيه أتحمل وحدي النتيجة.. ولكني لا أستطيع أن أجعل عائلتي كلها تتحمل هذا الأمر معي؛ لذلك من الأفضل أن تنتهي هذه القصة قبل أن تبدأ..

وحين انتهت من سرد مخاوفها، قال لها الحكيم:

- إنه من العار أن يفترق قلبان لأجل اعتبارات تافهة.

- أهذه الأشياء التي قلتها تافهة؟

- مع مرور السنوات سوف تدركين أن كل الأسباب التي دعتكِ للرحيل لم تكن إلا أسبابًا تافهة كان يُمكن حلها أو تجاوزها.. ولكن أتعرفين متى سوف تكون لعنتك؟..

- متى؟

- عندما تكتشفين أن الندم لن يكون نافعًا.

- ماذا تنصحني أن أفعل؟

قفز الحكيم من مكانه متحمسًا كما لو أن وحيًا من السماء نزل عليه تلك اللحظة وأخبره أن صديقًا عزيزًا سوف يظهر له في المستقبل عندما يتحد الطين بالنار..

صاح عليها يشجعها على اتخاذ الخطوة:

- هل من الضروري أن يعرف أنكِ جنية؟ وأن الأباطرة عائلتك؟

- لا أريد أن تبدأ علاقتي معه بالكذب.

- كل واحد لديه سر يُخفيه عن الآخر.. لا أحد يعرف حقيقتنا الكاملة، لا أحد يعرف الجزء المظلم فينا.. لا أحد يعرف كم يتوجب علينا كل صباح أن نرتدي من الأقنعة.. قناعًا تلو قناع.. لنُخفي حقيقتنا عن الأنظار.. الجميع يكرهون الكذب، ولكن في الحقيقة الجميع يكذبون ولولا الكذب لخسر الآخرون بعضهم بعضًا.

- هذا يعني أنك تنصحني بأن أكذب عليه بشأن حقيقتي؟

- نعم، لا تخبريه بأنكِ من الجن.

وأردف ناصحًا:

- إن الكثير في هذا العالم يموتون قبل أن يعثروا على الروح التي عقدوا ميثاقهم معها، فإذا كنتِ قد وجدتِها فلا تفرطي بها أبدًا وقاتلي من أجل البقاء معها.

٦

كانت شمس ذلك النهار قد أشرقت منذ ساعة عندما وصلت جومانا إلى الكهف واكتشفت أن لا أحد فيه.. تلفتت حولها ولكنها لم تجد له أثرًا فعرفت أنه رحل.

كادت أن تلحق به عبر الانتقال ولكنها خافت..

خافت أن تفعل ذلك فيكتشف أنها ليست إنسيّة، أو أن يكون طاغين أو أحد أعوانه هناك فيراها وتحدث مصيبة كبيرة..

لقد ندمت كثيرًا لأنها تأخرت في اتخاذ قرارها، لقد رحل الآن وما عادت تعرف أتلقاه مرة أخرى أم أنها لن تلقاه أبدًا.. وبينما هي كذلك إذ جاءها الصوت من خلفها:

- كنت واثقًا من أنكِ ستعودين..

وحين التفتت إليه ورأته كانت واثقة أنه هو .. **هو الروح التي عقدت ميثاقها معه** .. قالت تكاشفه عمّا بداخلها:

- وقلبي يميل إليك أيضًا.

لقد شاهد في حياته الكثير من النساء ولكن كل امرأة صادفها كانت أشبه بحرف أو كلمة في بيت من الشعر، إنما تلك المرأة وحدها كانت القصيدة الكاملة.

ولكن لأنه كان يريد لها الخير قال كمن يحذرها من نفسه:

- أنا رجل سيئ يا جومانا، لقد قتلت، وأحرقت، ودمرت، وحطمت، وألحقت الأذى بكثير من الأبرياء دون رحمة أو شفقة.. أنا رجل لي مقعد في الجحيم ينتظرني والشيطان بنفسه يستعيذ مني.. ولو كانت لديَّ ابنة لكنت سأرفض إعطاءها لشخص مثلي..

- تقول هذا الكلام وكأنك تريد مني الرحيل..

- بل أريدك، ولكنني أريدك أن تفكري أيضًا..

كانت تؤمن أن كل القلوب الفاسدة قابلة للإصلاح إذا ما مُنحت الثقة والفرصة الثانية؛ لذلك قالت له:

- حياتي معك تبدأ منذ هذه اللحظة، ولا شأن لي بماضيك - ثم طلبت منه هذا الطلب:

- دعنا لا نلتفت للوراء؛ فمن يلتفت للماضي تتعثر خطاه.

أما وقد سمع منها ذلك الكلام فقد قدّر لها ثقتها تلك، وقطع لها وعدًا بعدم الرجوع للعمل مع منظمة الجاثوم وكان ذلك الوعد هو خير بداية لهما.

٧

وعاش الاثنان لمدة عام كامل في الكهف..

وفي ذلك العام استطاع كل واحد منهما أن يفهم الآخر ويكتشف فيه أبعادًا لم يكن يعرفها من قبل..

فكان من الأشياء التي اكتشفها بحر فيها هو حُبها الشديد لرواية القصص.. وإيمانها الثابت الراسخ بحقيقة الجملة التي كانت تقولها له عند نهاية كل قصة:

- تذكر أن الرب يُجيب دعوة الداعي إذا دعاه..

تلك الجملة التي لم يكن يكترث بشأنها في البداية ولكنها مع التكرار تسللت إلى عقله الباطن فبات شيئًا فشيئًا يُصدقها ويؤمن بها.. وأصبح لاحقًا يسألها في كل مرة:

- أي دعوة؟

فكانت تُجيبه مبتسمة: نعم، أي دعوة.

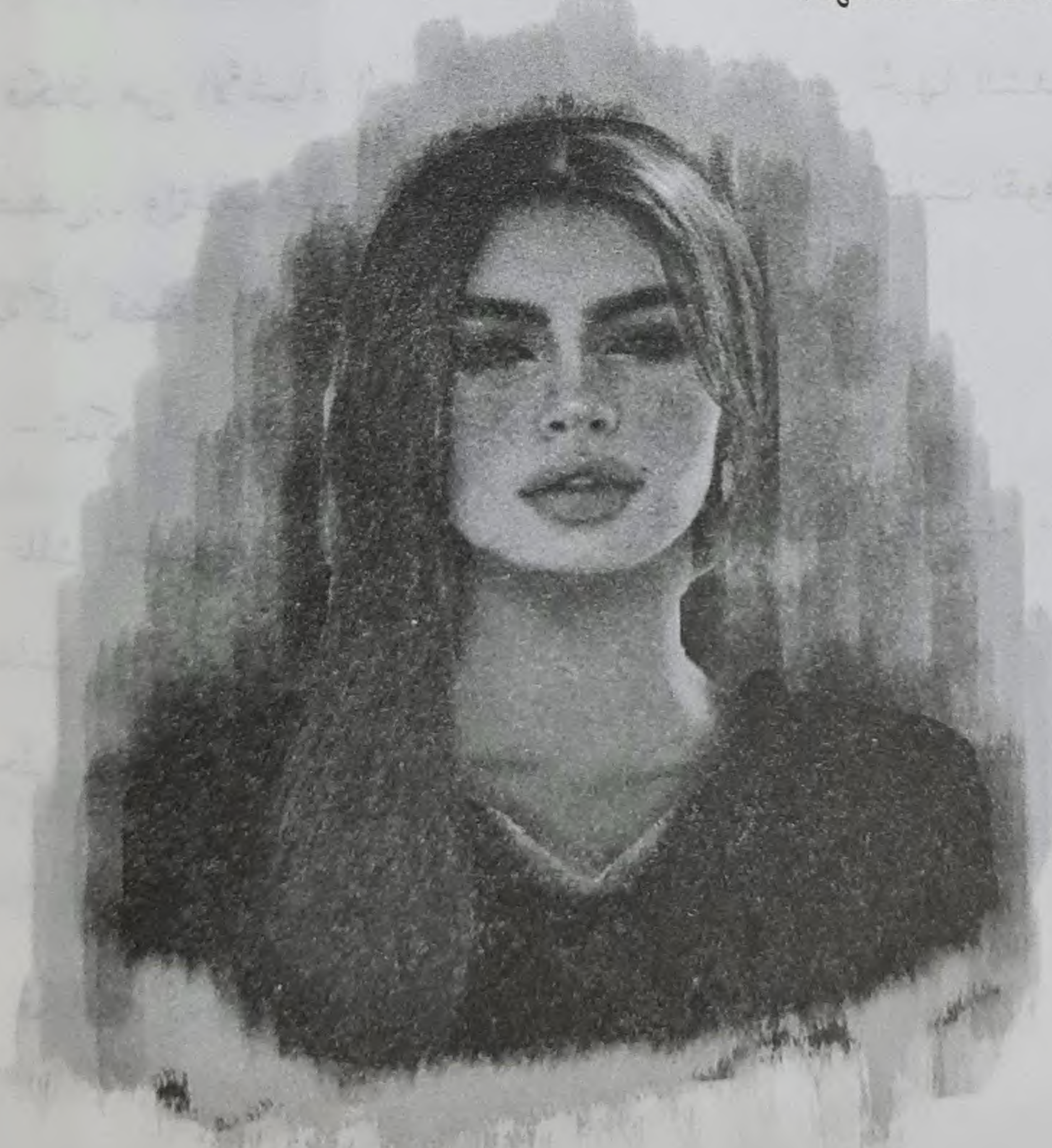
وكان من الأشياء التي اكتشفتها جومانا فيه ذلك العام هو أنه بالرغم من الحياة التي عاشها سابقًا - الحياة الملوثة بالدماء والشر - إلا أنه كان يجيد فن الرسم فقالت له ذات مرة:

- دعني أنظر إلى مدى براعتك..

فقال لها:

- أستطيع أن أرسم لكِ مستقبلي، وأدعكِ تنظرين إليه.

لم تفهم قصده إلا بعد ساعة حين انتهى من الرسمة ومدَّ لها الورقة تنظر إليها، فشاهدت نفسها:



في الحقيقة هو لم يقل لها تلك الجملة عبثًا: " أستطيع أن أرسم لكِ مستقبلي " بل كانت تلك طريقته غير المباشرة لإخبارها أنها الفتاة التي يريد قضاء بقية حياته معها..

**

بعد شهر من ذلك وذات ليلة كان فيها القمر مكتملًا فوق سماء أبابيل ويُضيء بنوره الناعم مدخل الكهف المهجور الآمن، قال لها بحر:

- جومانا لقد فعلتُ في حياتي كل الأشياء الفظيعة والتي قد تضمن لي دخول الجحيم من أوسع أبوابه.. لكنني لم أتخيل أبدًا أنني سأكون شريرًا للحد الذي يجعلني أفكر يومًا بالزواج.

قالت له حينها بدهشة ممزوجة بالغضب:

- ولماذا تريد أن تتزوجني طالما أنك ترى أن الزواج شر؟!

- لأنني أحبكِ - ثم أردف:

- **أنا العاصي بكل شيء أدخليني جحيمكِ.**

**

أخبرته جومانا في تلك الليلة أن الزواج يتطلب وقتًا من التفكير وأنها بحاجة لبعض الوقت قبل أن تتخذ قرارها.. وفي الحقيقة لم تطلب التأجيل لتفكر - فهي موافقة - ولكنها أرادت بعض الوقت ريثما تخبر عائلتها بالأمر ويعقد كُبراء الأباطرة اجتماعهم..

٨

في اليوم التالي وعلى أضواء النيران المشتعلة عقدت عائلة الأباطرة اجتماعًا طارئًا في الغابة ليناقشوا فيه أمر ارتباط ابنتهم الجنية ذات السلالة الملكية بمخلوق بشري.

وكانت تلك هي الحالة الأولى التي تشهدها العائلة منذ أن جاؤوا قبل سنين طويلة واستوطنوا أراضي الغابة المظلمة..

اجتمع يومها جبّار وكُبراء الأباطرة حول الصخرة السوداء والتي كان منظرها يشبه لحد بعيد منظر طاولة اجتماعات كبيرة.. اتجهت جميع الأنظار نحو جومانا والتي جلست وحيدة في الجهة المقابلة مثل متهم يتم التحقيق معه

سألها جبّار:

- هل تعلمين أن زواجك بمخلوق الطين ذاك..

قاطعت حديث والدها:

- إن له اسمًا يا أبي.. بحر.. اسمه بحر.

أحدثت تلك المقاطعة بعضَ الجلبة في الاجتماع حيث كان كُبراء العائلة يتساءلون فيما بينهم حول موضوع واحد وهو: " كيف تجرأت جومانا على مقاطعة حديث كبيرهم حتى ولو كان والدها "

قال جبّار وهو يضرب صخرة الاجتماعات بقبضة يده الضخمة:

- هدوء أيها السادة.

ثم تابع قائلًا بعد أن التزم الجميع بالهدوء:

- هل تعلمين أن زواجك من بحر سوف يكلفكِ قوة النار خاصتك، وبأن عينيكِ الحمراء ستنطفئان إلى الأبد ولن يكون في استطاعتكِ إشعالهما مجددًا وبأنكِ سـ....

- وبأنني سأصبح عاجزة مثل البشر تمامًا، أعلم كل ذلك يا أبي.

- وهل تعلمين أيضًا بأن قرارًا كهذا ربما قد يحرم أطفالك قوة النار؟!

قالت معترفة:

- لا أريدهم أن يحصلوا عليها - وأضافت: وإن حدث في يوم ورزقتُ بمولود يحملها فإنني سأبذل قصارى جهدي حتى أبقي الحقيقة سرًّا عنه فلا يستخدم قوته أبدًا..

سرت همهمة في الاجتماع بين كُبراء العائلة عندما سمعوا ذلك، فضرب جبّار صخرة الاجتماعات بقبضة يده الضخمة وقال:

- هدوء أيها السادة، دعونا نفهم منها لماذا لا تريد لأطفالها أن يحصلوا على القوة.

بعد أن التزم الجميع بالهدوء، تكلمت: حصول أحد أبنائي على قوة استثنائية خارقة للطبيعة البشرية سوف يثير بالتأكيد شكوك زوجي، وقد يعرض أمري للافتضاح..

أصيب جبّار بالدهشة مما سمعه للتو، فعلّق:

- هذا يعني أنك سوف تخفين حقيقة أصلك عن بحر ولن تخبريه بأنك من الجن؟

- إنه يكره الجن؛ وأخاف أن يهجرني إن عرف بالحقيقة.

وهنا ومن اللا شيء اقتحمت تاج عليهم الاجتماع:

- وهل تعلمين أيتها الحمقاء بأن زواجك من مخلوق الطين ذاك....

- بحر - صرخت مقاطعة - لديه اسم يا أمي إنه يدعى بحر!!

- تبًّا لك يا جومانا - ردت تاج وأردفت بغضب:

- وهل تعلمين أن زواجك منه يعني التخلي عن كونكِ فردًا من أفراد عائلة الأباطرة؟!

- سيصبح بحر حينها عائلتي وسنكوّن أنا وهو عائلتنا الخاصة.

سألت تاج بخبث كمن يدفع شخصًا من قمة رأس جبل:

- وهل يعرف أبوكِ من هو بحر ؟.. انظري إلى عينيه وأخبريه.

استرعت تلك الكلمات على انتباه جبّار الذي سأل ابنته:

- هل هناك شيء لا أعرفه؟!

لم تستطع إخفاء توترها ولكنها أجابت بالحقيقة:

- نعم، لقد كان بحر في السابق يعمل مع الجاثوم.

اتسعت عينا جبّار ولم يعلّق لفرط الفاجعة بينما أصيب كُبراء عائلة الأباطرة بالخرس لهول المفاجأة، فقالت تاج تخبرهم بالمعلومة الناقصة والتي لم تقلها لهم ابنتها:

- بل إنه كان واحدًا من أكبر قادات الجاثوم..

دافعت جومانا عنه: أخبرني بأنه نادم على ذلك يا أمي ولقد قطع لي وعدًا بعدم العودة للعمل معهم - ثم أضافت بعناد:

- وأنا أثق به وسأتزوجه!!

- لا تصدقي وعدًا يقطعه لكِ رجل.

قالت تاج ذلك ثم التفتت نحو زوجها جبّار بعتب:

- قل شيئًا لماذا تبدو موافقًا، كيف تسمح لابنتك بالوقوع في هذه المصيبة - وتابعت بحسرة: ألا يكفي الابن الذي خسرناه من قبل ولم نعد نعلم عن أمره شيئًا؟!

تمتم جبّار بحدة وكأنه لم يكن راضيًا عن وجود تاج بينهم:

- يكفي!!

غير أنها لم تكتفِ وأكملت:

- هل ستدع ابنتك تتزوج ذلك البشري دون أن تحرك ساكنًا؟!

تدخلت جومانا بنفاد صبر: قلت لكِ بأن له اسمًا يا أمي!!

- اصمتي أنتِ - صرخت تاج في وجهها - هل تظنين أننا سنقف أنا وأبوك مكتوفي الأيدي بينما نشاهدك تقفزين نحو الهاوية؟!

ضرب جبّار الصخرة السوداء بقوة كادت تقسمها لنصفين فصمتت تاج والتفتت جميع رؤوس الجن نحوه.. حُبست الأنفاس في انتظار قراره الأخير والذي سوف ينفذه الجميع من غير نقاش:

- جميعنا سنحترم ما تقرره جومانا طالما أن الأمر لن يضر أحدًا من أفراد عائلتنا - وأضاف:

- فلتتزوج من تشاء؛ فهذه حياتها ولديها كامل الحرية في أن تعيشها بالطريقة التي تراها مناسبة.. ولكن جومانا منذ اليوم ووفقًا لقانون العائلة فإنها لم تعد واحدة منا.. لقد تخلّت عن كونها فردًا من أفراد الأباطرة بموافقتها على الزواج من مخلوق بشري..

حاولت تاج الطعن في القرار:

- إنها لا تعرف مصلحة نفسه ..

قاطعها جبّار وهو ينظر إليها بحقد: اصمتي أيتها اللعينة.

حنت رأسها بحزن واختفت دون أن تُضيف شيئًا.

نهض جبّار من مكانه وهو يقول:

- سوف نرحل عن هذه الغابة، فلن تعيش عائلة الأباطرة بجوار البشر مرة أخرى.. يكفي ما خسرناه حتى الآن.. وسوف نجد لنفسنا مكانًا آخر نختبئ فيه.. وهنا ينتهي الاجتماع..

**

غادر الجميع ذلك الاجتماع إلا خمسة منهم وقد بقوا ليشهدوا تنفيذ القانون وهم " **كوبرا أفعى الجن تارا.. والوزيرة خيزران.. بالإضافة إلى ثلاثة آخرين من كُبراء العائلة** "

**

اقتربت الوزيرة خيزران منها وقالت:

- أأنتِ مستعدة لما سوف يحصل بعد قليل؟

بدا الحزن واضحًا على جومانا؛ فقد كان من الصعب عليها أن تُنفى خارج عائلتها وأن تتنازل عن قوتها .. ولكنها امرأة .. والمرأة في الحُب تُشبه السيل .. السيل العظيم الذي يُدمر كل عقبة تقف في طريقه

- متى ستصل؟

- لقد أرسلنا من يُبلغها بالأمر، وستصل بعد قليل..

لم يمضِ الكثير من الوقت حتى جاءت المرأة التي كانوا في انتظارها..

٩

كانت امرأة طاعنة في السن ذات قوام نحيل ووجه لا يزال يحتفظ بملامح جمال غابر، تملك عينين زيتونيتين أشبه بحقول أشجار زيتون مهجور ولديها شامة تُشبه القمر ترتسم على جبينها الطويل إنها " **سِربيل** " عرّافة مملكة أبابيل.

تقدمت العرّافة حتى باتت تقف بالقرب من جومانا، وقالت لها دون أن تكترث لمن كان يسمعها من الشهود:

- لا عليكِ يا بُنيتي، لقد أحسنتِ صُنعًا عندما لبيتِ نداء قلبك..

ثم رسمت بإصبعها خطًّا دائريًّا على الأرض وأمرتها:

- اجلسي وسط الدائرة..

جلست جومانا كما طلبت العرّافة منها..

تربعت العرّافة أمامها ثم بدأت بقراءة تعويذة الاستدعاء:

" يا رَاعِي ذِي شَلَّع وَذي .. بِحق مَن وَليتني،
وأمر أُشعوذة ولي .. من أَرضكم لأرضنَا
طوفوا إلي "

وظلت تُرددها مرارًا وتكرارًا حتى انشقت الأرض وانبثق منها فجأة ثلاثة رؤوس حمراء كبيرة تُشبه اليقطين: إنهم ثلاثة من خدّام الجن وقد جاؤوا يلبون النداء..

صعدوا فوق أرض الغابة وأخذوا يطوفون حول جومانا وهم يهزون أجسادهم مثل كلاب مسعورة أُصيبت فراؤها الجرباء بالبلل وكانوا يرددون بصوت واحد مخيف هذه الترنيمة:

" من أرضنا لأرضكم جئنا نُلبي أمركم "

واستمروا يرددون تلك الكلمات الست وهم يطوفون حولها ويطوفون حتى أُضيء الخط الدائري الذي كانت تجلس وسطه جومانا بلون أزرق وهّاج..

وبعد لحظات قليلة بدأت عروق دقيقة تُشبه خيوط البرق تنتشر في كُل شبر من جسدها.. حتى أصبح جسدها بعد قليل يتوهج بضوء شديد السطوع ولكن ذلك التوهج لم يستمر طويلًا حتى انطفأ فجأة.

عاد خدَّام الجن الثلاثة للمكان الذي جاؤوا منه.. ونهضت العرَّافة سِربيل من مكانها وقالت تُعلن الخبر:

- لقد زالت القوة عن أميرتكم..

تدخلت الوزيرة خيزران تصحح الجملة السابقة:

- هذه الفتاة لم تعد أميرة علينا بعد الآن..

ابتسمت العرّافة ابتسامة هازئة، واستدارت ثم رحلت من هناك..

شعرت جومانا بثقل رهيب في أطرافها وإرهاق لم تشعر به من قبل وأحست أنها ضعيفة.. ضعيفة ولا حول لها ولا قوة كحشرة تغرق في كوب ماء.

وكان كل من حولها ينظرون إليها باحتقار ودونية باستثناء تارا.. والتي رغم تعاطفها إلا أن هناك مهمة كان كُبراء العائلة والوزيرة ينتظرون منها القيام بها.

اقتربت منها ثم حاوطتها بجسدها الضخم ذو الحراشف الخشنة، فتساءلت جومانا التي لم تكن تعرف ما سيُفعل بها:

- ماذا تفعلين يا تارا؟

- آخذك إلى خارج الغابة المظلمة؛ فلم يعد لكِ حق البقاء فيها.

استسلمت جومانا لتلك الحقيقة، لكنها طلبت شيئًا أخيرًا:

- أريد إلقاء تحية الوداع على والدي.

تدخلت الوزيرة خيزران:

- لم تعد لكِ عائلة في هذا المكان، وجبّار لم يعد والدكِ.

تلفتت حولها كطفلة في زحمة السوق أضاعت عائلتها.. صحيح أنها فقدت قوة الجن ولكن قلبها أخبرها أن والدها قريب ينظر إليها فقالت ودموع الرجاء تترقرق في عينيها البُندقيَّتين:

- ألن تُعانقني للمرة الأخيرة؟!!

لم يخرج والدها؛ ربما لم يكن هناك ليسمعها فصاحت بنبرة باكية:

- **أريد وداعك فقط!!**

لكن صوتها الضعيف لم يذهب بعيدًا، ورغم ذلك عادت تصرخ وهي تتلفت حولها كورقة شجرة تبحث عن غصنها:

- ألن تعانق الفتاة التي قُلت بأنك لا تحب أحدًا مثلها ؟!!

أعطت الوزيرة خيزران أمرها لكوبرا أفعى الجن:

- خذيها لخارج الغابة – وأردفت:

- تعاملي معها كالغريب؛ اقتليها إن دخلت.

لم يكن أمام تارا إلا أن تمتثل لأمر الجنية الأعلى منها مقامًا في سُلم العائلة، فحملتها وزحفت بها مبتعدة نحو مخرج الغابة.. وعند المخرج قالت وهي تفلتها بإحسان:

- ليكن الرب معكِ.

حاولت جومانا استخدام قوتها لتتجاوز الحارسة وتدخل، إلا أن قوتها الجديدة لم تُسعفها وسقطت مكانها، قالت لها تارا برجاء:

- أرجوكِ غادري يا سموّ الأميرة..

- لم أعد أميرة يا تارا..

- بل ستبقين دائمًا أميرتي وصديقتي .. ولو حاول أحدهم أذيتك فلن أقف دون حراك وسأحميكِ بكل قوتي .. أتعلمين لماذا؟

- لماذا؟

- لأنه كلّ من يحاول أذيّة صديقي هو عدوّي؛ **إنّه قانون الصداقة.**

نهضت جومانا وربتت على الوجه الضخم لكوبرا أفعى الجن.. وكأنها بتلك الحركة كانت تودعها وتشكرها على حُسن صداقتها.. ثم قبل أن تستدير وترحل حاولت للمرة الأخيرة:

- إذا كنت تسمعني فاخرج أرجوك، أريد وداعك فقط.

لكن جبّار لم يظهر فأدركت أنه تخلى عنها إلى الأبد.. استدارت من هناك ورحلت.. وما كانت تعلم أن والدها كان يراقبها من داخل الغابة وعيناه وطن تأوي إليه قبائل الحزن.

**

لم يكن بمقدورها الذهاب للكهف وهي بتلك الحالة البائسة..

ولم تعد قوة الجن تتوفر بداخلها فتستطيع المكوث في العراء وحدها دون أن تخاف على نفسها من أذى اللصوص أو الوحوش الضارية فذهبت إلى منزل والدتها..

ولكنها ما أن اقتربت من منزل والدتها حتى سمعت زمجرة مخيفة آتية من فوق المنزل وحين رفعت رأسها نحو مصدر الصوت شاهدت طائرًا يميل لونه للأحمر وقد كان يُحذرها بزمجرته تلك من مغبة الاقتراب أكثر..

استدارت وكادت أن تنصرف ولكن باب المنزل فُتح وجاء صوت والدتها يقول:

- ما لذي جاء بك؟

- هل أستطيع البقاء عندك لهذه الليلة فقط؟

ورغم غضب تاج منها وعدم رضاها عنها إلا أنها قالت لها:

- أنتِ تستطيعين اللجوء إلى والدتك دائمًا - ورفعت رأسها تحادث طائرها:

- إكليل، اسمح لها بالاقتراب..

**

عندما جاء اليوم التالي اخبرتها تاج بأن جميع أفراد عائلة الأباطرة قد غادروا خلف جبّار.. جميعهم غادروا باستثناء تارا التي بقيت لحراسة الغابة من الدخلاء.

- وأنتِ لماذا لم تغادري معهم؟

- سأبقى هنا؛ لأكون قريبة منكِ

حذرتها جومانا: بحر يعلم أنكِ جنية؛ ولذلك لن أستطيع الاعتراف بكِ.. ولن أستطيع زيارتك أو استقبالك في منزلي أو حتى أن أخاطبك بأمي..

- يكفيني أن أتنفس من ذات الهواء الذي تتنفسين منه يا ابنتي.

ثم ولكي تُثبت تاج لها حُسن النية وأنها لا تنوي اختلاق المزيد من المشاكل في المستقبل فإنها أخرجت لها كتابًا منقوشًا على غلافه اسم " **التَّرجُمان** " وقالت لها:

- هذا هو الكتاب الذي يروي قصة **قيامة سبأ**.. خذيه وأعطيه الحكيم كما وعدتِه..

- لماذا تفعلين ذلك؟

- لأني أريد فرصة ثانية.

- لقد قلت لكِ إنني لا أستطيع ..

- لا أريدكِ أن تعترفي بي، أريدكِ فقط ألّا تكرهيني.

- والحكيم..

- ما به؟

- لن تؤذيه، أليس كذلك؟

- لسانه طويل يا ابنتي، وقد عرف عنّا أكثر من اللازم.

- فرصتكِ الثانية لن تبدأ، إلا بعد أن تُقسمي على عدم قتله..

**

لاحقًا وحين غادرت المنزل ذهبت تاج إلى الحُجرة التي قضت فيها جومانا ليلتها.. ذهبت لتتأكد مما إذا كانت ابنتها قد انتبهت إلى النصيحة الأخيرة التي وضعتها لها أسفل الوسادة:

" يا بُنيتي أراكِ تُفرطين بالتعلّق بهذا الشاب، وإنك بذلك كالسائر إلى حتفه، يا بُنيتي لا تتعلقي بأحد؛ إن الحُب هو التوأم اللطيف للموت "

وجدت تاج جُملة مُضافة كتبتها لها ابنتها أسفل النصيحة:

" ابنتكِ قد كبرت يا أمي .. وبات من حقها أن تختار مصيرها بنفسها "

١٠

مساءً ذهبت جومانا لمنزل الحكيم.. طرقت عليه الباب وحين فتح لها قالت:

- هذه المرة لستُ غاضبة منك.. ولكنني لم أعد قادرة على النفاذ من خلال الباب كما في السابق

دخل الحكيم لمنزله وحين عاد كان يحمل بيده فأسًا، وقام بتحطيم باب المنزل لأجلها وقال:

- في المرة القادمة لن يكون هناك باب ليقف في وجهك.

ابتسمت للطافته ومدت له الكتاب:

- لقد أوفيتُ لك اليوم بوعدي..

أخذ الكتاب منها وقد لفت انتباهه شيء كانت تحمله في يدها الأخرى:

- ما هذا الكأس الذي بيدك ؟ - وقال مخمنًا: سُم ؟

- إنه شراب النسيان.

- سيجعلني أفقد كل ذاكرتي؟

- لا؛ فقط الأحداث التي مررت بها مؤخرًا.

- بما فيها أنتِ؟

- نعم، بما فيها أنا

- ولكنكِ صديقتي الوحيدة وأنا لا أريد أن أنساك.

- صديقتك لم تعد لديها القوة الكافية لحمايتك، وقد توصلت أنا ووالدتي لاتفاق وهو أنك إذا شربت من سائل النسيان فإنها لن تقتلك أيها الحكيم.

- ألا نستطيع الكذب عليها؟

- لا؛ فهي تنظر إليك الآن من مكان ما لتتأكد بنفسها - وأردفت وهي تمدُّ له الكأس:

- أرجوك اشربه؛ فأنا لا أريدها أن تمسّك بسوء..

رفع الحكيم يده اليُسرى بحركة قذرة وصاح:

- هذا لأجلك يا تاج !!!

ثم رفع بيده اليُمنى الكأس وهمس قائلًا:

- وهذا لأجلك يا صديقتي جومانا..

وتجرّع ما فيه من شراب.

كان طعم سائل النسيان مُرًّا ولاذعًا مثل طعم جورب عفن، وكان بحاجة لبعض الوقت حتى يبدأ مفعوله الحقيقي.. سقط الحكيم أرضًا وبدأ وجهه ينضح بالعرق..

جلست جومانا إلى جواره وقالت:

- أنا وأنت لسنا صديقين فقط، أنا وأنت هيلانا واحدة..

أسند الحكيم رأسه على فخذها، وقال هامسًا والتعب يُسيطر عليه:

- ربما أنساكِ بعد قليل، ولكن أعدك أن روحي لن تنساك أبدًا.

سألته:

- أعرف عنك الكثير ولكن لا أعرف اسمك الحقيقي..

بدأت أنفاسه تتسارع، قال وهو يهذي كالمحموم:

- تعدينني ألّا تخبري أحدًا؟

تعجبت من حرصه على عدم معرفة الآخرين باسمه، ولكنها قالت:

- أعدك..

- كان والدي قد نذر أن يُسمي طفلته على اسم والدته.. ولكنه رُزق بي ولم يُرزق بفتاة.. ورغم ذلك أسماني عليها.

- وماذا أسماك؟

- **سُلاف** - ثم أضاف: ولكن كما اتفقنا.. لا تخبري أحدًا..

أدركت جومانا المصدر الذي ورث الحكيم منه بلاهته.

وكتمت ضحكتها فقال لها الحكيم ذات الجملة التي قالها مَيثم لها ذات مرة:

- اضحكي؛ فالرب يُحب الذين يضحكون.

ضحكت جومانا..

بينما ابتسم هو لمنظرها وهي تضحك، ثم غفت عيناه على صوت قهقهاتها.

**

حين أفاق بعد قرابة الساعة وجد نفسه وحيدًا عند عتبة المنزل.

لم يكن يذكر شيئًا مما حدث له مؤخرًا وكل ما كان يذكره فقط هو جملة قالها لفتاة ما طرقت عليه الباب:

" **لا بد أنكِ ابنة بقرة فاخرة؛ وإلا ما كنتِ بيضاء كالحليب هكذا** "

ولكنه لم يستطع أن يذكر ملامحها أو أيَّ شيء عنها.

نهض من مكانه وحين التفت نحو باب منزله وجده مُحطمًا فقال وقد سيطر عليه الغضب:

- لتُصب يدك بالشلل يا من حطمت الباب - ثم أضاف وهو يلتقط الكتاب وينهض:

- يجب أن أستدعي نجارًا ليُصلحه.

١١

في الكهف المهجور الآمن..

جلس الصديقان وجهًا لوجه وقد بدا أنهما كانا مُنهمكين وسط محادثة جادة:

- ولكنني قطعت لها وعدًا بعدم الرجوع للجاثوم وأنا جاد في ذلك

- أتستطيع أن تقطع لها وعدًا بعدم رجوع الجاثوم إليك؟

- ماذا تقصد؟

- أقصد أنهم لن يتركونا وشأننا يا بحر، وأنت تعلم هذا الأمر جيدًا.

- لقد مضى أكثر من عام دون أن يظهر أحد منهم

- وهذا ما يُخيف أكثر.

قال منفعلًا:

- لماذا لم تتكلم منذ البداية يا أيوب، لماذا تتكلم الآن؟!!

- ظننت أنها نزوة عابرة وستنتهي، أما وقد تطور الأمر للزواج فقد وجب عليّ تقديم النصيحة.

بدا بحر محتارًا في اتخاذ قراره فقال أيوب له يكشف الحقيقة.. الحقيقة التي يعرفها بحر جيدًا ولكنه يختار تجاهلها:

- مهما كنت تعتقد أنك تخلصت من ماضيك يا صديقي إلا أنه سيظل يلاحقك حتى نهاية عمرك؛ فإذا كنت تحب هذه الفتاة كما تقول فدعها وشأنها ولا تورطها معك..

"كان أيوب معه حق" هكذا فكر بحر وقال متخذًا قراره:

- لنرحل.

- ألا تريد أن تودعها قبل الرحيل؟

- لقد قالت إنها سوف تفكر بقرار الزواج.. ولا أعلم إن كانت ستعود بالموافقة أو الرفض ولكن في كلتا الحالتين سيكون من الأفضل ألّا أسمع جوابها.

تأهب الاثنان للمغادرة ولكن قبل أن يغادرا وصلت جومانا..

كان الأمل يسكن وجهها الجميل النقي وكانت بشائر الفرح تتسلق حبال صوتها كعرائش العنب، قالت:

- أنا موافقة.

لقد كانت سعيدة بالعودة إليه مثل مهاجرة عادت بعد أعوام لمدينتها الضائعة، وكان بحر هو تلك المدينة.. المدينة التي لا تستطيع إغلاق أبوابها في وجه العائدة..

لم يكن بوسعه خذلانها، لم يكن بوسعه أن يعترف لها بحقيقة أنه كان بصدد الرحيل عنها.. لقد كانت كالشمس التي يشعُّ نورها عند نهاية النفق؛ لذلك ترك خوفه من الظلام جانبًا وركض نحو الشمس يُعانقها.

أما أيوب فإنه لم يتحسس بشأن تجاهل صديقه لنصيحته؛ فهو يُدرك في نهاية المطاف أن الصداقة تحتم عليه تقديم النصيحة.. تقديمها فقط دون مراقبة قبولها أو رفضها.

ويُدرك في الوقت ذاته أن واجبه كصديق يُحتم عليه الآن دعم صديقه في القرار الذي اختاره، حتى وإن كان ذلك القرار جاء بعكس ما يعتقده أو يراه.

لذلك فإنه سار نحوهما وقال:

- مُبارك عليكما الزواج - وأضاف:

- ليتني أملك بعض المال لأقدم لكما هدية بهذه المناسبة.

قفزت جومانا في تلك اللحظة وقالت:

- هناك هدية تستطيع تقديمها لنا دون الحاجة للمال.

- سأفعل أي شيء لأجلكما.

- أي شيء؟

- نعم، أي شيء..

- حسنًا - قالت وهي تسير إلى خارج الكهف - اتبعاني.

**

أخذتهما نحو مقابر الجسَّاسة..

وحين وصلوا هناك أوصتهما بالصمت..

لم توصِهما بذلك لأن الأموات كانوا يخلدون في نوم عميق ولا تريد إزعاجهم بل لأن هناك راقدًا تحت التراب كانت تريد مفاجأته..

سارت بهما إلى أحد القبور وقالت لأيوب:

- هديتنا أن تسامح والدك.

صحيح أن ذلك الغول كان يبدو دائمًا غير مكترث لشيء، ولكن في الحقيقة: أن أسفل كل غِطاء من اللا مبالاة هناك آبار من الأحزان والخذلان والألم.

لقد كان لا يزال يتألم بسبب تلك الذكرى القديمة ولكن لم يكن لأحد أن يسمع أنين قلبه؛ وذلك لأنه كان يُجيد إخفاء جروحه عن الآخرين فيبدو دائما وكأنه بخير.

استدار وهمَّ بالمغادرة مُعلنًا عدم قدرته على تقديم تلك الهدية.

ولكن بحر أوقفه: لقد كان والدك سببًا في لقائنا يا أيوب؛ فلو لم يقم ببيعك ذلك اليوم لما كنا قد التقينا أنا وأنت أبدًا .. فألا يشفع له هذا الأمر قليلًا؟

لم يكن لقائهما صدفة، بل كان لُطفًا ورحمة من الرب لقلبيهما.

حينها فقط أغمض أيوب عينيه وجعل يتذكر والده وهو يركض خلف القافلة ويلاحقه بهذه الكلمات:

" أرجوك سامحني، قل بأنك تسامحني "

قال:

- أنا أُسامحك يا أبي.

ابتسمت جومانا .. ابتسمت لأنها تخيلت الغمازة الرقيقة لصديقها مَيثم وهي ترتسم على صفحة خده الأيسر بينما كان ينظر إليهم من السماء في تلك اللحظة.

الباب الأخير



تزوج بحر وجومانا..

واستقرا في منزل من الطين قديم كان هو منزل صديقهما مَيثم.

سارت حياتهما بشكل طبيعي كأي متزوجين في هذه الحياة: فكانت الأيام تمضي عليهما وهما في صفاء تارة أو في شِجار تارة أخرى ولكن الأهم من هذا وذاك هو يقينهما التام أن الحياة لا تصبح جميلة إلا وهما معًا..

وأما عن كيفية تأمينه الرزق فقد عاد هو وأيوب لصنعتهما القديمة عندما كانا صغيرين: فكانا يقومان بحمل البضائع ونقلها من السوق إلى منازل الزبائن..

ورغم أن الأجر الذي يأخذانه كان زهيدًا.. إلا أن طعمه كان أشد حلاوة بالنسبة لهما من الأموال الباذخة التي كانا يأخذانها في الماضي مقابل الأعمال الشيطانية.

أما اليوم الأجمل في حياة بحر - والذي شعر فيه بأن قلبه كاد أن يقفز من صدره لشدة الفرح - فقد كان بعد قرابة السبعة أعوام من الزواج وتحديدًا في اليوم الذي جاءت جومانا تبشره فيه بحملها..

حينها ولأجل تأمين حياة كريمة للطفل القادم، قرر بحر أن يوسع مصادر دخله:

فتوقف هو وأيوب عن نقل البضائع من السوق إلى منازل الزبائن وأصبحا بدلًا عن ذلك يقومان باستئجار القوافل الكبيرة ويملأانها ببضائع التجار ثم يقومان بنقلها من القرى للقرى الأخرى، وكانا يتكفلان وحدهما بحمايتها من اعتراضات اللصوص وقطاع الطرق.. وقد درَّ عليهما ذلك العمل رزقًا وفيرًا..

وكانت طبيعة عمله الجديد تحتم عليه أحيانًا التغيب عن منزله لعدة أيام أو أسابيع، فكان يقول لزوجته في كل وقت يعود فيه إليها:

- في الغياب كانت رائحتك تصلني يا جومانا.

وعندما تسمع ذلك منه كانت دهشة الأطفال ترتسم في عينيها، فيقول لها:

- أنتِ بستان الياسمين الذي تطاردني رائحته أينما ذهبت وتُعيدني إليه مكبلًا مثل أسير حرب.

**

سارت الأيام على خير ما يرام حتى جاءت تلك الليلة..

كانت ليلة لا قمر فيها ولا نجوم..

وكانت جومانا قد دخلت لتوها شهرها الخامس من الحمل، وبينما هي تختار مع زوجها اسمًا للطفل القادم إذ طرق أحدهم باب المنزل فنهض ليفتح الباب وهو يقول مخمنًا:

- لا بد أنه أيوب، سأرى ما يريد وأعود إليك.

طالت مدة غيابه عند الباب أكثر مما كان يحتمله الأمر..

فنهضت لتطمئن عليه ولكنها لم تجده..

أحسنت الظن في البداية واعتقدت أن أمرًا طارئًا قد حدث له وجعله يذهب دون أن يتوفر لديه الوقت الكافي ليخبرها بالأمر.. ولكن غيابه ذاك استمر لساعات ثم لأيام.. وما أخافها أكثر هو أنها عندما ذهبت لاحقًا لمنزل أيوب حتى تسأله عن زوجها اكتشفت أن أيوب قد رحل أيضًا.

**

كان الرب وحده يعلم مدى ثُقل الفزع المتوغل في دهاليس قلبها والزمهرير الجاثم في قاع نفسها.. مثل سفينة منسيّة غارقة في قعر محيط مجهول..

وكان ما يغيظها أكثر هو أن الأيام في حُزنها كانت تتوالى بشكل طبيعي - يومًا بعد يوم، نهارًا بعد ليل - دون أن تتوقف وتُربت عليها قليلًا؛ وهذا ما يجعلها تشعر أنها بكل أوجاعها لا تعني للعالم شيئًا.

ورغم الهواجس التي كانت تُهاجمها في كل لحظة وحين..

رغم خوفها وأرقها والوهن الذي أصاب جسدها بسبب الحمل إلا أنها قررت عدم الانصياع وراء أفكارها السيئة وقررت أن تنتظره حتى لو طال غيابه أكثر، وامتد لآخر العمر.

**

طال غيابه أكثر..

وكانت كلما اشتاقت إليه ترفع إلى السماء رأسها وتُطيل النظر إلى القمر؛ فربما كان هو ينظر إلى القمر في تلك اللحظة فيعانق طرفه في السماء البعيدة طرفها.

وكانت تُثرثر عنه في ليالي الحنين مع الشهب والنيازك والأفلاك المسيرة، وكانت تُخبر النجمات - نجمة نجمة - أنه أشد الأشياء عشقًا وقربًا وحُبًّا إلى فؤادها وروحها وقلبها.

**

استمر غيابه طيلة الأشهر الأربعة التالية..

وكانت جومانا طوال هذه الفترة قد تعرفت على بعض الجارات أولئك اللائي كانت تندس بينهن عندما كانت لديها قوة الجن في السابق وقد كوّنت معهن صداقة تتخفف بها من ثُقل وحدتها.

وذات يوم وبينما كانت في طريق عودتها من سوق الجسّاسة إذ تعثرت قدمها بحصاة بارزة لم تنتبه عليها في الطريق وسقطت مع أغراضها أرضًا..

كان ألم الحمل يُثقل جسدها ولذلك لم تستطع التزحزح من مكانها..

وبينما الناس بمحاذاتها يمضون، وعربات الخيول والحمير تسير من جوارها ولا أحد يُلقي بالًا لها إذ فجأة امتدت يد أحدهم نحوها وجاءها الصوت يقول:

- دعيني أساعدك..

حين نظرت جومانا لصاحب تلك اليد وجدتها فتاة..

لم تكن فتاة غريبة عنها..

وحين دققت النظر إليها عرفتها - إنها **ماريا** - تلك الفتاة التي أنقذتها من اللصوص الأربعة في الكهف قبل سنوات..

قامت ماريا بمساعدتها على النهوض، ولملمت لها أغراضها المتناثرة في الطريق وقالت:

- دعيني أوصلك إلى وجهتك يا سيدتي..

أوصلتها ماريا لمنزلها وقررت أن تمكث لديها في الأيام القادمة لتساعدها في وضع مولودها..

لكن جومانا رفضت المساعدة..

لم يكن رفضها المساعدة سببه عدم ارتياحها لوجود شخص غريب في المنزل، بل لأنها لم تكن تريد أن تشعر بأن ماريا تفعل ذلك معها من باب الشفقة أو رد الجميل..

قالت ماريا وكأنها استطاعت أن تحدس ما يدور في رأسها:

- والدتي **عاتكة** كانت قابلة قرية الجسَّاسة يا سيدتي.. وقد ورثت ذلك عنها.. وإذا كنت سأمكث لديكِ لبعض الأيام فأنا لا أقوم بذلك من باب الشفقة أو رد الجميل إنما بذلك أقوم بعملي..

اقتنعت جومانا بكلامها ولكنها اشترطت عليها أمرًا:

- إذا كنتِ ستقومين بهذا العمل، فإنكِ ستأخذين أُجرة عليه في المقابل.

كانت القابلة ماريا تعلم أنها ستُطرد من المنزل في حال رفضت ذلك الشرط فقالت:

- حسنًا، وأنا موافقة.

**

مكثت عندها لبعض الأيام حتى جاء اليوم الموعود.. وكانت القابلة قد جلبت بعض الأدوات التي قد تحتاجها أثناء التوليد، وحضَّرت المكان وهيأته لاستقبال القادم الجديد:

- تمددي هنا يا سيدتي.

قالت ذلك وهي تشير بإصبعها نحو فرشة أرضية نظيفة..

تمددت جومانا فوق الفراش..

عرّتها القابلة من ثيابها؛ كي لا تتسخ الثياب بدماء الولادة ثم سترت جسدها العلوي باللحاف .. قالت جومانا تهذي كالمحمومة والعرق يتصبب منها:

- أنا خائفة جدًّا، وأشعر أنني لن أنجح.

كانت خفقات قلبها عالية وكأن قطيعًا من الجياد الجامحة كانت تركض نحو الشمس داخل صدرها..

قالت لها القابلة:

- بينما أنتِ يائسة وتخالين أن الأيام استطاعت إلحاق الهزائم بك، وأنكِ وحيدة في هذا العالم، مهملة، ضعيفة، تائهة، لا أحد يكترث لكِ أو بك، هناك من يرى فيكِ بطلًا وقدوة ومثالًا يُحتذى به.

ثم أمسكت القابلة يدها وقالت:

- في البداية عندما كانت والدتي تحثني على تعلم مهنة التوليد كنت أرفض ذلك، كنت أرى أن تسخير حياتي لأجل مساعدة الآخرين أمر سخيف جدًّا وتافه.. حتى جاء ذلك اليوم الذي أنقذتِني فيه داخل الكهف من اللصوص الأربعة.. حينها فقط أدركت كم هو عظيم ورائع أن تمدي للآخرين يد المساعدة، ومنذ ذلك الوقت وأنتِ قدوتي ومثلي الأعلى في هذه الحياة.. دعينا نهزم الخوف دعينا نهزم كل المشاعر السيئة نحن لسنا كما نظن أنفسنا نحن أقوى بكثير مما نعتقد..

استطاعت تلك الكلمات البسيطة أن تُعزز ثقتها بنفسها وتمنحها جرعة عالية من القوة، قالت وثمّة شيء يبرق من عينيها البُندقيَّتين.. لم يكن البريق نابعًا من طاقة النار هذه المرة بل من طاقة الأمل:

- دعينا نفعلها يا ماريا.

**

بدأت القابلة ماريا تُهيئها للولادة من خلال إعطائها بعض النصائح والإرشادات المهمة، ولاحقًا وعندما باتت لحظة الولادة وشيكة قالت لها:

- والآن ابتسمي يا سيدتي، طفلكِ سيأتي إلى هذا العالم.

**

" وبعد ساعة من ذلك "

**

لم يكن طفلًا عاديًّا أبدًا فهو لم يخرج من رحم والدته باكيًا مثل بقية المواليد.. بل خرج صامتًا يُقلب بصره في الأشياء مدهوشًا كما لو أنه تفاجأ بوجود كوكب آخر غير الكوكب المظلم الضيق الذي كان يعيش فيه.

"

وذَهبت ليلًا إليها..

طرقت عليها بوابة القلعة، وقالت بنبرة متوسلة:

- أرجوكِ، إن الوساوس تأكلني يا أمي.

- ماذا تريدين؟

- أريد أن أعرف الحقيقة، أريد أن أعرف أين اختفى بحر؟

- لن أخبركِ

- لماذا؟

- لأنكِ سوف تموتين يا جومانا لو حاولتِ اكتشاف الحقيقة.

"

تستمر أحداث القصة في رواية

"أبابيل"

المؤلف:

أحمد آل حمدان ..

جومانا

كلّ من يحاول أذيّة صديقي هو عدوّي؛ إنّه قانون الصداقة.

أحمد آل حمدان
I_ahmedalhmdan



adabarabic7
services_book
servicesbook1
www.adab-book.com



